عرفان السيِّد ابن طاووس
دراسةٌ تحليليَّةٌ في الأفكار العرفانيَّة
للسيِّد ابن طاووس (القسم الرابع)

الدكتور محمَّد هادي فلاح

ترجمة : أيُّوب ناصر نعمة

مراجعة : أ.د. عليّ عبَّاس الأعرجيّ

مركز تراث الحِلَّة

The Mysticism of Sayyid Ibn Tawus
An Analytical Study of Sayyid Ibn Tawus›s
Mystical Thoughts (Part Four)

Dr. Muhammad Hadi Falah
Translated by: Ayyub Nasser Ne'mah
Reviewed by: Prof. Ali Abbas Al-Araji
Hilla Heritage Center

المرحوم الكفعميّ:

كتبَ أثرَين مُستقلَّينِ في الدُّعاء:

١. البلد الأمين.

٢. جُنَّة الأَمان، وجنَّةُ الإيمان الباقية.

ويُلاحظ استفادة الكفعميّ من السَّيِّد في كتابه (جُنَّة الأمان)؛ فالكفعميّ تأثَّر بالسَّيِّد في سلوك السائلين، واعتمد في كتابيه على الآثار السَّيِّد في الأدعية.

واستفاد أكثر من ترتيب (مُهج الدَّعوات)، و(إقبال الأعمال)، و(فتح الأبواب)، و(مصباح الزَّائر)، و(المجتنى)، و(عمل شهر رمضان)، و(الدُّروع).

واختصر في كتابه (جُنَّة الأمان) من أدعية شهر رمضان، من كتاب عمل شهر رمضان، وأشار إلى من أراد التوسُّع يراجع ذلك الكتاب: «تمَّ ما اختصرناه من الأدعية في هذا الشهر الشريف، وهي كثيرة جدًّا، من أرادها فعليه بكتاب (عمل شهر رمضان)، تأليف السَّيِّد الجليل رضيّ الدين عليّ بن طاووس الحسنيّ، ختم الله له برحمته، وختم له بجنَّته خاتمة»(١).

المرحوم ملَّا محسن الفيض الكاشانيّ:

أثَّر السَّيِّد بلحاظ الأخبار، والرُّوايات بشخصيَّاتٍ كثيرة كـ: العلَّامة المجلسيّ، والفيض الكاشانيّ.

ولا يفهم من أنَّ الفيض الكاشانيّ تأثَّر بالسَّيِّد في الرواية فحسب، بل تأثَّر به أخلاقيًّا، وعرفانيًّا.

(١) المصباح للكفعميّ (جنة الأمان الواقية): ٦٤٦.

تأثَّر الفيض الكاشـانيّ (ت١٠٩١هـ) بالمطالب الأخلاقيَّـة، والعرفانيَّة من كتاب (كشف المحجَّة)؛ فقام الكاشانيّ بتلخيصه بعنوان: (تسهيل السبيل بالحجذَة في انتخاب كشف المحجَّة لثمرة المهجة)، ونقل جملة من النُّكاتِ في شرح هذا الكتاب.

وكتـب الكاشـانيّ عن السَّـيِّد، وطريقه لتحصيـل العلم، والعمل: «هـذا مُنتخب من كتاب كشـف المحجَّة لثمرة المهجة، من مصنَّفات السَّـيِّد الإمام العالم العامل الفقيه الكامـل الزَّاهـد العابد الورع المجاهـد رضيّ الدِّين، جمال العارفين، أفضل السَّـادة أبي القاسـم عليّ بن موسـى بن جعفر بـن محمَّد بن الطـاووس العلويّ الفاطميّ الحسـنيّ الداوديّ السليمانيّ طاب ثراه، الذي وصَّى به أكبر أولادِه محمَّدًا رحمه الله، وذكر فيه ما لا يكاد يوجد في كتـاب آخر من مصنَّفات أصحابنا العلـماء رضوان الله عليهم، من طرق تحصيل فنَّي العلم والعمل، أوردت فرائده المبتكرة»[١].

المرحوم السَّيِّد حيدر الآمليّ (أعلى الله مقامه):

تقدَّم عنوان (مكاشـفات السَّـيِّد) وفيها أنَّ جميـع العلوم الإسـلاميَّة المتداوَلة بين المسـلمين هي من أمير المؤمنين عليه السلام، مثل: علم الفقه، والتَّفسـير، والنَّحو، وعلم تصفية الباطن، (ومنها علم تصفية الباطن)[٢].

(أنت يا عليّ): هو الصراط الإلهيّ، (وأنت) هو الطريق الوُسطى فى العمل (إشارة إلى الحديث النبويّ).

- من يوم الأزل أخرجت القرعة باسمك.
- كلُّ شخص يوجد سكران فى هذه البادية.

(١) تسهيل السبيل بالحجَّة في انتخاب كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٩.
(٢) الطرايف في معرفة مذاهب الطوايف: ٢/ ٥١٨.

- باليقين شرب الخمر من يدك..
- متى تصل جوابًا إلى هتاف قلبي يا عليّ؟.
- المفتاح الأصليّ لكلّ سرّ أنت يا عليّ في كلّ زمان..
- إذا رأى الكعبة سرًّا، أنت سرُّها يا عليّ..
- باليقين أنت سرُّ الأسرار دائمًا..
- أنت «إذن الدُّخول» لكلِّ شخصٍ يريد أن يسلك طريق السُّلوك[1].

ويعتقد السَّيِّد أنَّ جميع الصوفيَّة ترجع إليه سلام الله عليه: «ومعلوم أنَّ نسب جميع الصوفيَّة ينتهي إليه»[2].

وممَّا ينبغي الالتفات له، أنَّ المراد في هذا البحث الصوفيَّة المقيَّدة بالشريعة، ولا نعني غيرهم ممَّن تسمَّوا بهذا الاسم، وكما تخرج من هذا الانتساب الفرقة النقشبنديَّة، نعم ما كان عن طريق معروف الكرخيّ متَّصلًا بالإمام الرِّضا عليه السلام، وأنَّ سائر الفِرق تنسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

وأشار السَّيِّد حيدر الآمليّ إلى هذه المسألة، والاعتقاد: «فتلك (العلوم) بأسرها مأخوذةٌ من خُطبهِ، وحِكَمِه؛ فإنَّ فيها من الأسرار الإلهيَّة، والمعارف الربَّانيَّة، وعلم القضاء، والقَدَر، وعلم المعاد والحشر والنَّشر، فوق ما يوجد في كتب أكابر الحكماء، وأساطين العلماء. وقد كان عليه السلام مشهورًا بحكيم العرب، وأستاذ البشر ومعلِّم الجنِّ، والملك، وكان تلميذه في هذه العلوم، بعد أولاده المعصومين (سلام الله عليهم)، سلمان الفارسيّ، وخُلاصة الصَّحابة؛ ثمَّ عبد الله بن عبَّاس؛ ثمَّ كميل بن زياد النخعيّ.

(١) المؤلِّف.
(٢) المصدر نفسه.

وأمَّا علوم التصوُّف المنسوبة إلى أرباب الطَّريقة؛ فانتسابها إليه، أي إلى أمير المؤمنين، معلوم مشهورٌ؛ فإنَّ علم الرِّياضة، والتَّصفية، والتَّخلية، والتَّحلية، وتصفية الباطن، والسُّلوك، والسَّير، كلُّها عنه أُخذتْ، ومنه تُعلّمَتْ، كما سيجيء إسنادُها عند استناد الخرقة في أثناء هذا البحث[1].

كما قال في المحيط الأعظم: «وأمَّا علم التَّصوُّف، وأرباب الطَّريقة؛ فانتسابهم إليه في العلوم، والمعارف، وتصفية الباطن، والسلوك إلى الله ظاهرة الانتهاء»[2].

عدَّ جملةٌ من علماء الشِّيعة، والسُّنَّة، أنَّ هذا المقام من مختصَّات الوصيّ عليه السلام، ويعدُّ دليلًا على أفضليَّته على الخلفاء الآخرين، ومن هؤلاء العامَّة ابن ابي الحديد المعتزليّ، الذي كان معاصرًا للسيِّد ابن طاووس، في شرحه على نهج البلاغة[3]، ومحمَّد بن طلحة الشافعيّ (ت٦٥٤هـ)، وهو أيضًا معاصرٌ للسيِّد، في كتابه: مطالب السؤول[4].

وأمَّا علماء الشِّيعة فعلى سبيل التمثيل: الإربلِّيّ تلميذ السَّيِّد ابن طاووس في (كشف الغمَّة)[5]، والعلَّامة الحِلِّيّ (ت٧٢٦هـ) في (منهاج الكرامة)[6]، وغيرها من كتبه[7]، وابن ميثم البحرانيّ في (شرح نهج البلاغة)[8]، والملَّا محمَّد تقي المجلسيّ في أوَّل رسالته (تشويق السالكين)[9].

(١) المقدِّمات من كتاب نصِّ النصوص: ٢١٦.
(٢) تفسير المحيط الأعظم: ١/ ٤٨٧.
(٣) لاحظ: ١/ ١٩، ٦/ ٣٦٥.
(٤) راجع: مطالب السؤول في مناقب ال الرسول: ١٦١.
(٥) يلاحظ: كشف الغمَّة: ١/ ١٣١.
(٦) يراجع: منهاج الكرامة: ١٦١.
(٧) على سبيل المثال: نهج الحقِّ وكشف الصدق: ٢٣٨، وكشف اليقين: ٥٩.
(٨) يراجع: شرح نهج البلاغة: ١/ ١٩٠.
(٩) ينظر: تشويق السالكين: ١٦.

ولكن هناك جملة من الأعلام لم يرتضِ هذا الانتساب، ومنهم الميرزا القمِّيّ[1].

وممَّن تأثر بالسَّيِّد في الأحاديث، والأدعية الشَّيخ المرحوم عبَّاس القمِّيّ في كتبه ذات الصِّلة بالأدعية، والزِّيارات؛ فهي ناظرةٌ في ترتيبها إلى كتب السَّيِّد كـ(مصباح الزَّائر)، و(إقبال الأعمال)، و(مُهج الدَّعوات)، و(جمال الأسبوع)، و(المزار)، و(الأمان).

ولعلَّنا لا نجد ممَّن كتب بعد السَّيِّد في هذا السياق، ولم يتأثَّرْ به في الطَّريقة، والتَّرتيب، والنَّقل عنه.

وينقل العارف بالله الميرزا جواد التبريزيّ عن أستاذه العارف بالله ملَّا حُسين قُلي الهمدانيّ أنَّه قال في مقام المراقبة عند السَّيِّد ابن طاووس: «ما جاء مثله في علم المراقبة في الأمَّة من طبقة الرعيَّة»[2].

ونقل أيضًا عن أستاذه مِن أنَّه لم يأتِ شخصٌ في علم المراقبة بعد المعصومين كالسَّيِّد ابن طاووس[3].

ومن هنا أطلق عليه على السَّيِّد جمال العارفين، وسيِّد المُراقبين[4].

وممَّن سار بهذا الاتِّجاه المرحوم ملَّا حُسين قُلي الهمدانيّ؛ فهذا العارف الكبير من أتباع نهج المراقبة الذي عليه السَّيِّد ابن طاووس، وفضلًا عن ذلك، كان المرحوم الهمدانيّ كالسَّيِّد في تأكيده أن لا يفصل السلوك والعرفان عن الشَّريعة، وأنَّ الشَّريعة لها الأهميَّة الكبيرة، وكان يوصي بذلك، ونلاحظ هذا بوضوح في رسالته إلى أحد علماء تبريز؛ إذ أكَّد فيها لزومَ الشَّريعة في السُّلوك، وممَّا جاء فيها:

(١) انظر: الشيرازيّ، محمَّد معصوم، طرائق الحقائق: ١/ ٤٥٩-٤٣١. (فارسيّ).
(٢) المراقبات: ١٢٤.
(٣) المصدر نفسه: ٢٤٥.
(٤) لاحظ: شرح المناجاة الشعبانيَّة: ٢٤، ٣٢.

«لا يخفى على إخوة الإيمان أن لا سبيلَ للقُرب من حضرة ملك الملوك إلَّا بالالتزام بالشَّرع الشَّريف في جميع الحركات، والسَّكَنات، والكلمات، واللحظات، وغيرها، وأنَّ السَّير تبَعًا للخُرافات الذوقيَّة، ولو أنَّ الذَّوق جيِّدٌ في غير هذا المقام، كما دأب الجهَّال، والصُّوفيَّة خذلهم الله جل جلاله، لا يوجب إلَّا بُعدًا، حتَّى إنَّ الشَّخص المؤمن بعصمة الأئمَّة الأطهار صلوات الله عليهم؛ إذا التزم بعدم حلق شاربه، وبعدم تناول اللحم؛ فإنَّ عليه أن يدرك أنَّه سيكون بعيدًا عن الحضرة الأحديَّة.

والأمر كذلك بالنِّسبة إلى الذِّكر بغير ما ورد عن السَّادات المعصومين عليهم السلام.

وبناءً على هذا وجبَ تقديمُ الشَّرع الشَّريف، والاهتمام بما اهتمَّ به الشَّرع الشَّريف؛ وما استفدتُه أنا الضعيف من العقل، والنَّقل، هو أنَّ أهمَّ الأشياء لطالب القرب: الجدُّ والسَّعْي الدَّؤُوب في ترك المعصيةِ.

وما لم تنجزْ هذا الأمر، فلن ينفع حالُ قلبك ذكرك، ولا تفكُّرك شيئًا؛ لأنَّ المقيم في العصيان، والإنكار لن تنفعه الهديَّة، والخدمة التي يقدِّمها للسُّلطان، ولستُ أعلم سلطانًا أعظم شأنًا من هذا السُّلطان، كما لا أعلم منازعةً أقبح من منازعته! «فافهم ممَّا ذكرت أنَّ طلبك المحبَّة الإلهيَّة، مع كونك مرتكبًا للمعصية، أمرٌ فاسدٌ جدًّا، وكيف يخفى عليك كون المعصية سببًا للنفرة، وكون النفرة مانعة الجمع مع المحبَّة، وإذا تحقَّق عندك أنَّ ترك المعصية أوَّل الدِّين، وآخره، ظاهره، وباطنه؛ فبادر إلى المجاهدة، واشتغل بتمام الجدِّ إلى المراقبة، من أوَّل قيامك من نومك في جميع آناتك إلى نومك، والزمِ الأدبَ في مقدَّس حضرته، واعلمْ أنَّك بجميع أجزاء وجودك ذرَّةً، ذرَّةً أسير قدرتِه، وراعِ حرمة شريف حضوره، واعبدْه كأنَّك تراه؛ فإن لم تكن تراه، فإنَّه يراك، والتفت دائمًا إلى عَظَمته، وحقارتك، ورفعته، ودناءتك، وعزَّته، وذلَّتك، وغناه، وحاجتك، ولا تغفل [عن] شناعة غفلتك عنه جل جلاله، مع التفاته إليك دائمًا، وقمْ بين يديه مقام العبد الذَّليل

الضَّعيـف، وتبصبص تحت قدميهِ بصبصة الكلبِ النَّحيف، أَوَ لا يكفيك شرفًا، وفخرًا أنَّه أَذِنَ لك في ذكر اسمه العظيم بلسانك الَّذي نجَّستهُ قاذورات المعاصي؟!».

فيا أيُّها العزيز، لقد جعل هذا الكريم الرَّحيم لسـانك مخزنًا لجبل النور؛ أي لذِكره الشَّريـف؛ فإنَّ من قلَّة الحياء أن يلوِّث مخزن السُّـلطان بنجاسـات، وقـاذورات الغِيبة، والكَـذِب، وفُحش القول، والأذى، وغيرها من المعاصي، وينبغي لمخزن السُّـلطان أن يكـون موضـع العطر، وماء الـورد، لا موضع القُمامة، ولا شـكَّ أنَّك لـمَّا لم تهتمَّ بدقَّة المراقبة؛ فإنَّك لا تعلم ما اجترحت بجوارحك السَّـبعة (أي بأُذُنك، ولسانك، وعينك، ويدك، ورجلك، وبطنك، وفرجك)، ولا تعلم أيَّ نيران أوقدتَ، وأيَّ فساد على دينك أدخلتَ، وأيَّ جراحٍ مُنكرة ألحقت بقلبك بسيف لسانك وسنانه؛ وأنَّك إن أنت لم تقتلْه بعد، فأنت محظوظ، ولو شـئت بيان تلك المفاسـد لما كفاني في ذلـك كتاب كامل؛ فماذا عسـاني أذكر في ورقة واحدة؟! وكيف تنتظر منِّي أن أكتب لك شـيئًا في أحوال القلب، وأنت بَعدُ لم تطهِّر جوارحك من دنس المعاصي؟! «فالبِدارَ البِدارَ إلى التَّوبة الصَّادقة، ثمَّ العجلَ، العَجَلَ في الجدِّ، والمُراقبة»[1].

وختـم رسـالته بقول: «الحاصل لا طريقَ إلى القـرب إلَّا بشرعٍ شريفٍ في كلِّ كلِّيٍّ، وجزئيّ»[2].

وتأثَّـر المرحـوم البهـاريّ بأسـتاذِه في العمل، والسُّـلوك؛ فنطالـع في آثاره يوصي بموازين الشريعة، ومحوريَّتها حتَّى في المباحات: «اقتداءً بالنَّبيِّين (صلَّى الله على نبيِّنا وآله وعليهم السلام)، وتأسِّيًا بالأئمَّة الطيِّبين الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين»[3].

(١) تذكرة المتَّقين: ١٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ١٨٢.
(٣) المصدر نفسه: ٨٨.

وأكدَّ البهاريّ في رسالته إلى سفير بغداد هذا المعنى: «وينبغي أن لا يترك، بعد علم الفقه، أيّ ركن من أركان الشريعة، ولا يؤوَّل ظواهرها، وأن يأتي بوظائفها بتكاليفها كلًّا في محلِّه، ومن الغلط المحض أن يدَّعي العرفان تارك الصَّلاة؛ بل تارك النَّوافل أيضًا»(١).

وممَّن تأثَّر بالسَّيِّد ابن طاووس العارف الكامل المرحوم الميرزا جواد التبريزيّ، وثمَّة شواهد نلاحظها في آثاره على هذا التأثُّر؛ فهو ينقل كثيرًا عن السَّيِّد، وكذلك المرحوم عبَّاس القمِّيّ، ولكنَّ الفرق بينهما أنَّ الشيخ القمِّيّ يختصر نقله على الحديث، بينما التبريزيّ تأثُّره بالسَّيِّد في بُعده العرفانيّ، والمعنويّ، كما نطالع في مسفوراته، مكرِّرًا ذِكر السَّيِّد ابن طاووس بعباراتٍ مثل: (السَّيِّد الأجلّ)، (السَّيِّد السَّنَد)، (سيِّدنا ومولانا)، (سيِّدنا الأوحد)، (قُدوتنا ومولانا)، (أُسوة ومعلِّم، ومُقتدى أهل المراقبة)(٢).

وكتب المرحوم التبريزيّ المُراقبات على نهج وسياق كتاب (الإقبال) للسيِّد ابن طاووس، مع أنَّ التّبريزي أبدى بعض الملاحظات على نظريَّات السَّيِّد، ولكن كانتْ في قمَّة الأدب، والاحترام: «لعلَّ المُراد..، أنا أقول: لم يعلم مراده.. و لعلَّ مراده»(٣).

وكتب الميرزا التبريزيّ في أواخر كتاب المراقبات: «ثمَّ إنَّ سيِّدنا، قدوة أهل العلم والعمل، طاووس أهل المراقبة، ومعلِّمهم، ومروِّج هذا العلم، وعامِله، إنَّما كتب في كتابه (الإقبال) أصول مراقبات أعمال السَّنة على أحسن ما يُمكن أن يُكتَب، ولم يكتبْ مثله في هذا المعنى، ويظهر من هذا الكتاب أنَّه، عليه سلام الله، وسلام آبائه

(١) تذكرة المتَّقين: ١٠٤.
(٢) لاحظ هذه الأوصاف في جملة من كتبه، على سبيل المثال: لقاء الله، أسرار الصلاة، المراقبات.
(٣) المراقبات: ١٣٣.

الطاهريـن، أكمل في تحرير هذا الكتاب أيضًا مراقبة الله جل جلاله، ولذا أنشـأ في آخر الكتاب دعاءً، ومناجاة، وقال فيه: قد امتثلت مرسومك اللَّهمَّ فيما اعتمدت عليه، مجتهدًا بك في الإخلاص فيما هدَيتَني إليه»[1].

ويشـير المرحوم جـواد التبريزيّ إلى التـأدُّب في الأحوال، والأفعـال، بما ورد عن الشَّارع، ويذكر ما أنشأه السَّيِّد من الأدعية: «أن يتأدَّب الإنسان في جميع أحواله، وأفعاله بما علَّمه الشَّارع من ذِكر الله بما يناسب هذا الحال، وهذا الفعل والدُّعاء للحفظ والبركة، ولذكر ما يناسـب من أمور الآخـرة والدُّعاء لها، ومن هذا الباب الأدعية التي أنشـاها السَّيِّد ابن طاووس قدس سره لبعض الأحوال، والأفعال؛ فإنَّه، وإن لم يأخذْها بالخصوص من الروايات، إلَّا أنَّه أخذها ممَّا يُفهَم من الرِّوايات، والعُمومات»[2].

«وتفكَّر فيما أفاده السَّيِّد الأجلُّ، معلِّم أهل المراقبة، السَّيِّد ابن طاووس في الإقبال، بقولـه: أيُّها الأخ المقبل بإقبال مولاه ليعلم كيف تحضر بين يديه، ارحمْ ضعفَ روحِك، ما قبل مشورة نصيحك، وفكِّر في تعظيم من هو مقبل عليك، وطهِّر قلبك من الشَّواغل التي يحول بينك وبين إحسانه إليك»[3].

ويوصي بالمحاسـبة يوم الخميس من آخر الشَّهر، بقوله: «ويدعو الله من حقِّه بكرم عفوه، وتبديله السـيِّئات بالحسَنات، ويدعو بما أنشـأه السَّيِّد المراقب من دعاءٍ لذلك في كتـاب محاسـبة النفس لأواخر النهار من اليوم، لاسـيما آخر الشَّـهر، بـما يُرجى معه أن يكون كفَّارةً لما صدر منه في الشهر كلِّه..»[4].

(١) المراقبات: ٤٣٨.
(٢) أسرار الصلاة: ٣٩.
(٣) المصدر نفسه: ٩٣.
(٤) المصدر نفسه: ١٠٨.

«منها: آخر اللَّيل إلى طلوع الفجر، وقدَر بالثلث الأخير، وفي الرواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إذا كان آخر اللَّيل يقول الله سبحانه وتعالى: هل من داعٍ فأجيبه؟ هل من سائلٍ فأُعطيه سؤله؟ هل من مُستغفرٍ فأغفر له؟ هل من تائبٍ فأتوب عليه**».

وفي أُخرى: يا طالبَ الخير أقبلْ، ويا طالب الشَّرِّ أقصِرْ.

وفي رواية: إذا نام حتَّى طلع الفجر، بال الشيطان في أذنيه؛ فاعتبروا يا أولي الألباب.

أقول: و(إنَّ) للسيِّد الجليل ابن طاووس قدَّس الله سرَّه العزيز، الَّذي كان يقول شيخي قدس سره أنَّه ما جاء مثله في علم المراقبة في الأمَّة من طبقة الرعيَّة في هذا المقام، جوابًا عمله للمراقبين أن يقولوا مخاطبًا لهذا المنادي، وهو في نفسي أمرٌ عظيمٌ، و سنَّةٌ حسَنةٌ، وهو فيما علمنا أوَّل من سنَّ هذه السُّنَّة الفاخرة جزاه الله خيرًا»[1].

«ولذلك أنشأ قدوة أهل المراقبة سيِّدنا الأوحد جزاه الله عن أمَّة جدِّه جزاء المعلِّمين المنبِّهين لجواب منادي الله تعالى في الليالي، كلامًا لطيفًا جامعًا لمراسيم هذا المقام، مناسبًا لأداء حقِّ المنادي والنِّداء: إنِّي صدَّقت بربوبيَّتك وبمحمَّد خاتم رسالتك، والتَّصديق بالأوصياء الاثني عشر، الذين هم حُججُ الله تعالى، وخلفاؤه في الأرض»[2].

واستمرَّتْ هذه المدرسة عبر السَّيِّد الخمينيّ، والسَّيِّد عليّ القاضي، وطلَّابه، كالسَّيِّد العلَّامة الطباطبائيّ، والسَّيِّد عبد الكريم الكشميريّ، والشَّيخ بهجت، وكذا استمرَّتْ عبرَ طلَّاب السَّيِّد العلَّامة الطباطبائيّ، كالشَّيخ حسن زاده الآمليّ.

وعدَّ العارف بالله المرحوم السَّيِّد عليّ القاضي مسألة التَّوحيد الأساس للسَّير،

(١) المراقبات: ٢٠٧.

(٢) اسرار الصلاة: ٤٨٣.

والسُّلوك العمليّ، وهذا ما ذهب إليه السَّيِّد ابن طاووس، كما تقدَّمَ بيانُه، من أنَّ أهمَّ مسألة لسلوك السائلين، وغاية آمال العارفين، هي مسألة التوحيد.

وأنَّ العلَّامة ذَكَر عن أستاذه السَّيِّد القاضي (رحمهم الله تعالى)، أنَّ السَّيِّد ابن طاووس، وبحر العلوم، وابن فهد الحِلِّيّ من الشخصيَّات التي لهم تمكُّن في التوحيد.

وممَّن أشاد بالسَّيِّد ابن طاووس، السَّيِّد الخمينيّ؛ فكانتْ له منزلة خاصَّة عند السَّيِّد الخمينيّ، فما جاء في وصفه: «.. للعارف السَّالك المجاهد ابن طاووس رضي الله عنه»[1].

«جناب العارف بالله، والمجاهد في سبيل الله، مولانا السَّيِّد ابن طاووس رضوان الله عليه..»[2].

«السَّيِّد العابد الزَّاهد رضي الله عنه»[3].

«العارف بالله السَّيِّد ابن طاووس رضي الله عنه»[4].

وتقدَّم من أنَّ السَّيِّد الخمينيّ من المتأثِّرين بالسَّيِّد ابن طاووس في المعرفة والأخلاق، ويعدُّه من العلماءِ الكِبار المقبولين عند الجميع.

ويؤيِّد السَّيِّد الخمينيّ ما ذهب اليه السَّيِّد ابن طاووس من يوم تكليفه عيد بوصفه إذنًا من الله تعالى بالعبادة: «وإنِّي لا أستبعد أن يكون الهدف من العيد، بعد انتهاء شهر رمضان المبارك، ضيافة الله؛ لأنَّ المسلمين قد دُعوا إلى ضيافة الله تعالى، وأمضوا مدَّةَ الضِّيافة؛ فالعيدُ هو من أجل ضيافة الله.

(١) أدب حضور: ٢٨.
(٢) سرُّ الصلاة (موسوعة الإمام الخمينيّ): ٤٧-٥٤.
(٣) المصدر نفسه: ٩.
(٤) المصدر نفسه: ٣٩.

يُنقل عن السَّيِّد أبن طاووس، رضوان الله عليه، بأنَّه احتفل يوم بلوغه سن الرُّشد، إذ أذن له بالعبادة في محضر الله تبارك وتعالى. ولو لم يكن أمر الله تعالى، لستُ أدري كيف كنَّا سنسمح لأنفسنا بمدح الله والثناء عليه»[1].

«نُقل عن العبد الصالح العارف بوظائف العبوديَّة، وصاحب المقامات، والكرامات، عليّ بن طاووس قدَّس اللهُ نفسه، أنَّه كان يحتفل في كلِّ عامٍ يوم ذكرى بلوغه للتَّكليف الشرعيّ، ويتَّخذه عيدًا، وينثر الهدايا على الأصدقاء، والأهل، وذلك لـمَّا شرَّفه الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم بالإذن في فعل العبادات، والطَّاعات.

هل أنَّ فعل الطَّاعات يعدُّ لهذا الروحانيّ من الصبر على المكروهات الكامنة في أعماق الإنسان؟ أين نحن، وأين هؤلاءِ العباد المنقادون للحقِّ تبارك وتعالى؟.

نحن نحسب بأنَّ الحقَّ تبارك، وتعالى قد كلَّفنا، وشدَّدَ علينا، ونعدُّ الأحكام الشرعيَّة كلفةً، وإزعاجًا، وإذا بذل أحدُنا الجهد في أوَّل الوقت لأداء الفريضة، لقال إنَّه مفروضٌ عليّ، ويجب في أقرب وقت أن أرتاح منه! كلُّ هذه التَّعاسة من جهلنا، وقلَّة عِلمِنا، ونقص أو فقدان إيماننا»[2].

فمن منظار السَّيِّد الخمينيّ أنَّ السَّيِّد ابن طاووس له من الرُّوح، وقوَّة الإيمان، ووصل أعلى درجات التوحيد، ولما يتمتَّع به من نورانيَّة، وصفاء، جعل من يوم تكليفه عيدًا له: «إنَّ إيمان السَّيِّد ابن طاووس رحمه الله يدفعه للاحتفال بيوم بلوغِه؛ لأنَّ الحقَّ المتعال قد رخَّص له المناجاة، وزيَّنه بزينة التَّكليف، والخطاب، فلاحِظ بكلِّ دقَّة أيّ قلبٍ هذا الذي يحمل هذا القدرَ الكبير من النُّور، والصَّفاء، إذا لم يكن لك عمل هذا السَّيِّد الجليل

(١) صحيفة الإمام: ١٧/ ٤٢٤.
(٢) الأربعون حديثًا: ٢٦٠.

حجَّة لك؛ فعمل سيِّد الموحِّدين، وأولاده المعصومين، سلام الله عليهم، حجَّة عليك؛ فتأمَّلْ في حياتهم، وكيفيَّة عباداتهم، ومناجاتهم..»[1].

ويقول المرحوم آية الله العظمى الشَّيخ بهجت: «ينبغي لأهل العلم مطالعة كتب السَّيِّد»[2].

«كان أساتذتنا لا يعدُّون الشَّخص من الرِّفاق إذا لم يكن لديه كتاب الإقبال للسيِّد ابن طاووس»[3].

وإذا طلب تلاميذه منه عمل في الأشهر المباركة: رجب، وشعبان، وشهر رمضان المبارك، يجيب: يكفي مطالعة، والعمل بكتاب الإقبال للسيِّد»[4].

وكان العلَّامة الطباطبائيّ، صاحب كتاب تفسير الميزان، يجلُّ السَّيِّد ابن طاووس، والسَّيِّد بحر العلوم، ويكتب عنهما بإعجابٍ؛ لما لهما من منزلة ومكانة، وأنَّه يهتمُّ لكتاب الإقبال، ويعبِّر عن السَّيِّد بأنَّه سيِّد أهل المراقبة[5].

كما ينقل تلميذه العلَّامة الشيخ حسن زاده الآمليّ: «إنَّ السَّيِّد ابن طاووس صاحب الإقبال، وابن فهد صاحب عدَّة الدَّاعي، والسَّيِّد بحر العلوم، من الكاملين».

«يقول السَّيِّد محمَّد حسين الطباطبائيّ: كان لأخي (السَّيِّد محمَّد حسن الإلهيّ الطباطبائيّ) في تبريز تلميذ يدرِّسه الفلسفة، وكان ذلك التلميذ يقوم بإحضار الأرواح؛ فاستطاع أخي بواسطة تلميذه ذاك الاتِّصال بكثيرٍ منَ الأرواح.

(١) الأربعون حديثًا: ٤٢٩.
(٢) أدب الحضور: ٢٩.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ٢٨.

.. و كان المرحوم يقول: لقد ارتبطنا بواسطة هذا التلميذ بكثيرٍ من الأرواح، وطرحنا عليها الأسئلة، وكان بعضها يتضمَّن الأسئلة المستعصية في الحكمة، والتي كنَّا نطرحها على المؤلِّفين أنفسهم، وكان يقول: لقد أحضرنا أرواح كثيرٍ من العلماء، وطرحنا عليها الأسئلة، إلَّا أنَّنا لم نستطع حتَّى الآن إحضار روح نفرَيْن، أحدهما روح المرحوم السَّيِّد ابن طاووس، والأخرى روح المرحوم السَّيِّد مهدي بحر العلوم، رضوان الله عليهما، وكان هذان الشَّخصان قد قالا: نحن وقف خدمة أمير المؤمنين عليه السلام، ولا مجالَ لنا للنُّزولِ أبدًا»[1].

وممَّن تأثَّر بالسَّيِّد ابن طاووس العلَّامة الشيخ حسن زاده الآمليّ، وممَّا يؤيد ذلك:

أ. اهتمامه لكتاب الأقبال، حتَّى وصل به الحدُّ أن يوصي به أن يكون كتابًا درسيًّا في الحوزة العلميَّة.

«آمل أن تجعل في الحوزات العلميَّة كتب الأدعية، والأذكار، الصادرة عن أئمَّتنا الأطهار عليهم السلام، التي تبيِّن مقامات، ودرجات، ومعارج الإنسان، ضمن متون الكتب الدرسيَّة، وتُدرَّس للطلبة الذي يفهمون القول، ومن أهل الدعاء، والسّير، والسُّلوك، وساروا في هذا الطريق؛ فمثلًا تُدرس بهذا الترتيب: الأوَّل مفتاح الفلاح للشيخ البهائيّ، وبعده عدَّة الدَّاعي لابن فهد؛ ثمَّ قُوت القلوب لابي طالب المكِّيّ؛ ثمَّ الإقبال للسيِّد ابن طاووس، وأخيرًا إنجيل أهل البيت، وزبور آل محمَّد الصَّحيفة السجَّاديَّة، وأن تصبح هذه الكتب ضمن الكتب الدرسيَّة؛ حيث إنَّ لها دورًا مهمًّا في إحياء المعارف الإسلاميَّة الأصيلة»[2].

(١) أدب حضور: ٢٩.

(٢) رسالة نور على نور: ١١.

ب. فضلًا عن أنَّ العلَّامة الآمليّ كرَّرَ اهتمامه لهذا الكتاب (الإقبال)[1]؛ فإنَّه اعتمد على كلام السَّـيِّد في ما يتعلَّق بالمناسبات الزمانيَّة: «فإنَّ لأصل حضور شهر الله المبارك، شـهر رمضان، أثرًا تكوينيًّا على النفوس المستعدَّة، مثلما أنَّ لحلول شهر رجب الأصبّ، ومنازله، شـهودًا خاصًّا لما كانوا من أهله، وصرَّح بذلـك صاحب الفتوحات المكِّيَّة في وصف الرجبيِّين، وقد أقبل هذا الشُّـهود الرجبيِّ الخاصّ عدَّة مرَّات على بعض الفقراء إلى الله، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

يقول السَّـيِّد ابن طـاووس في كتابه الإقبـال: «إنَّ لأوقات القبـول أسرارًا لله ﷻ ما تُعرف إلَّا بالمنقول (آخر الباب ٦ من أعمال ذي الحجَّة، ص٥٢٧، ط٢)، وبعض هذه الأسرار تُعرف أيضًا بالمعقول؛ فتُدرَك بإحساسٍ خفيٍّ غريب»[2].

وتقـدَّم في موضوع مكانـة الأدعية، وإنشـاء الأدعية، ما ذكر العلَّامة حسـن زاده الآمليّ، أنَّه ينشأ الدُّعاء، وهو عالمٌ مُستبصرٌ[3].

وينقل عن العلَّامة الطباطبائيّ أنَّه يعدُّ السَّيِّد من الكُمَّلِ[4].

٢. السَّيِّد والتصوُّف:

تقدَّم نحو تأثُّر السَّـيِّد بالتصوُّف، ولكن ثمَّة سـؤلان مهمَّان في هذا السِّياق، ينبغي الإشارة لهما:

الأوَّل: ما نظر السَّيِّد ابن طاووس إلى التصوُّف؟.

والثاني: ما رأي المتصوِّفة بالسَّيِّد ابن طاووس؟.

(١) لاحظ: رسالة نور على نور: ١٥٨-١٥٩، ١٦٥.
(٢) المصدر نفسه: ١٦٥-١٦٦.
(٣) المصدر نفسه: ٧١-٧٢.
(٤) المصدر نفسه.

نحاول أن نجيب عن هذين السؤالينِ عبرَ ما توافر لنا من وثائق في هذا المجال.

إنَّ المراد من المتصوِّفة، والصوفيَّة، والتصوُّف، في هذا البحث، هم تلك المجموعة التي ظهرت في السياق التاريخيّ للتصوُّف في القرون الأولى، وعبّر عنها بهذه العناوين.

٢-١. الصوفيَّة من منظار السَّيِّد:

أشرنا فيما تقدَّم من رؤية السَّيِّد للصوفيَّة، وهنا نعرض بالترتيب ما وافق، وما خالف.

٢-١-١. الموافِق:

نلاحظُ في جملة من كتب الصوفيَّة ينقلون عن السَّيِّد، ويعتقد بعضهم أنَّ السَّيِّد من المتصوِّفة، والدَّليل على ذلك، موافقته إلى ما يذهبون إليه، وهنا نشير إلى ما ذكروه في هذا السياق:

٣-١-١-١. انتساب الصوفيَّة:

تقدَّم غير مرَّة أنَّ السَّيِّد يُرجِع انتساب الصوفيَّة إلى أمير المؤمنين عليه السلام، كما أنَّ العلوم الإسلاميَّة الأخرى يرجع انتسابها إليه عليه السلام، مثل: علم الفقه، والنَّحو، والتَّفسير، وتصفية الباطن (ومنها علم تصفية الباطن)[1]؛ فيعتقد السَّيِّد أنَّ جميع الصوفيَّة تنتهي سلسلتهم إلى أمير المؤمنين عليه السلام: «ومعلومٌ أنَّ نسب جميع الصوفيَّة ينتهي إليه»[2].

(١) الطرائف: ٢/ ٥١٨.
(٢) المصدر نفسه.

مع أنَّ جُملةً من علماء الإسلام يرفض عدَّ بعض الأعلام من الصوفيَّة، ومنهم السَّيِّد ابن طاووس، مع أنَّ السَّيِّد نفسه عنده من المسلَّمات من أنَّ نسب الصوفيَّة ترجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وخلافًا للآخرين، يذهب السَّيِّد من أنَّ أبا يزيد البسطاميّ تشرَّف في محضر الإمام الصادق عليه السلام، وكذا معروف الكرخيّ إلى آخر عمرِه كان في ساحة الإمام الرِّضا عليه السلام.

٣-١-١-٢. توثيق محمَّد بن سنان:

يوثِّق السَّيِّد محمَّد بن سِنان، خلافًا للآخرين؛ ففي كتابه (فلاح السائل) يذكر رواية، ويقع في سندِها محمَّد بن سنان، وهناك من يطعن فيه: «أقول: وسمعتُ من يذكر طعنًا على محمَّد بن سنان؛ لعلَّه لم يقف على تزكيته، والثَّناء عليه، وكذلك يحتمل أكثر الطُّعون؛ فقال شيخنا المعظَّم المأمون المفيد محمَّد بن محمَّد بن النَّعمان في كتاب كمال شهر رمضان ما هذا لفظهُ على أنَّ المشهور عن السَّادة عليهم السلام من الوصف لهذا الرجل خلاف ما به شيخنا أتاه، ووصفه، والظَّاهر من القول ضدّ ما له به ذِكر»[1].

ثمَّ قال: «كَقَوْلِ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، كَمَا رَوَاهُ الْقُمِّيُّ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي آخِرِ عُمُرِهِ؛ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: **جَزَى اللهُ مُحَمَّدَ بْنَ سِنَانٍ عَنِّي خَيْرًا، فَقَدْ وَفَى لِي**.

وَكَقَوْلِهِ عليه السلام، فِيمَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ دَاوُودَ قَالَ: سَمِعْنَا أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَذْكُرُ مُحَمَّدَ بْنَ سِنَانٍ بِخَيْرٍ، وَيَقُولُ: **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِرِضَائِي عَنْهُ، فَمَا خَالَفَنِي، وَلَا خَالَفَ أَبِي قَطُّ**.

هذا مع جلالته في الشِّيعة، وعلوِّ شأنه، ورئاسته، وعِظَم قدره، ولقائه من الأئمَّة عليهم السلام ثلاثة، وروايته عنهم، وكونه بالمحلِّ الرَّفيع منهم، أبو إبراهيم موسى بن

(١) فلاح السائل: ١٢.

جعفر، وأبو الحسن عليّ بن موسى، وأبو جعفر محمَّد بن عليّ عليهم أفضل السلام، ومع معجزة أبي جعفر عليه السلام الذي أظهرها الله تعالى، وآيته التي أكرمه بها، فِيمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي الْخَطَّابِ، أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ سِنَانٍ كَانَ ضَرِيرَ الْبَصَرِ؛ فَتَمَسَّحَ بِأَبِي جَعْفَرٍ الثَّانِي؛ فَعَادَ إِلَيْهِ بَصَرُهُ بَعْدَ مَا كَانَ افْتَقَدَ.

أقول: فمن جملة أخطار الطُّعون على الأخيار، أن يقف الإنسان على طعنٍ، ولم يستوفِ النَّظر في أخبار المطعون عليه، كما ذكرناه عن محمَّد بن سنان رحمةُ الله عليه؛ فلا يعجل طاعنٌ في شيء ممَّا أشرْنا إليه، أو يقف من كتبنا عليه؛ فلعلَّ لنا عذرًا[1] ما اطَّلعَ الطَّاعنُ عليه»[2].

وما ذهب إليه المرحوم معصوم عليشاه في محمَّد بن سنان، مستندًا إلى قول السَّيِّد ابن طاووس فيه: «وللسيِّد السعيد رضيّ الدين بن طاووس كلام في محمَّد ابن سنان، وأشباهه محصِّله: إنَّ جلالة قدرهم، وشدَّة اختصاصهم بأهل العصمة (سلام الله عليهم)، هو الذي أوجب انحطاط منزلتهم عند الشيعة؛ لأنَّهم لشدَّة اختصاصهم بهم، أطلعوهم على الأسرار المصونة عن الأغيار، وخاطبوهم بما لا تحتمله أكثر الشِّيعة؛ فنُسِبوا إلى الغلوِّ وارتفاع[3] القول، وما شاكلهما، انتهى»[4].

وذكر صاحب كتاب التشيُّع والتصوُّف: «ردَّ السَّيِّد ابن طاووس على الشَّيخ المفيد

(١) أشار السَّيِّد إلى العذر والطعن لاحظ: فلاح السائل: ٩-١١.
(٢) المصدر نفسه: ١٢
(٣) والغلو: هو مجاوزة الحدِّ في الدين، وفي التنزيل ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [سورة النساء، الآية: ١١٧، سورة المائدة، الآية: ٧٧]، ويُقال: أصله الارتفاع ومجاوزة القدر في كلِّ شيء. مرآة العقول: ١١/ ١٤٢.
(٤) طرائق الحقائق: ٢/ ٢١٨. (الشيرازيّ، محمَّد معصوم).

في رأيه في محمَّد بن سنان، فما له من كشف وكرامات، شاهد على مقامه، وأشار السَّيِّد حيدر الآمليّ من أنَّ تقيَّة الشِّيعة، وأسرار المتصوِّفة، لفظان لمعنى واحدٍ»[1].

وقد لاحظ في كلامه ما جاء في كتاب طرائق الحقائق، وأنَّ بعضًا، مثل الشبيبيّ في كتابه (التشيُّع والتصوُّف)، سجَّل ذلك من أنَّ ثمَّة منافاة في السَّنَد، ونحن ننقل القراءَتَين، وبعدهما نسجِّل ردًّا قصيرًا على ذلك: «نُقل عن رضيّ الدِّين أنَّه يقول: إنَّ الأئمَّة عليهم السلام لشدَّة اختصاصهم بهم، أطلعوهم على الأسرار المصونة عن الأغيار، وخاطبوهم بما لا تحتمله أكثر الشِّيعة، فنُسِبُوا إلى الغلوِّ»[2].

ويظهر أنَّهم اعتمدوا على هذا الاستدلال، مثل النصيريَّة؛ إذ عدُّوا محمَّد بن سنان من الأكابر، وينقلون ما نقله عن أبي الخطَّاب[3].

أمَّا النَّقد على هذَين القراءتَين، مع ملاحظة عبارة عليشاه، فنشير إلى نكاتٍ فيه، وهي:

أ. إنَّ الأشخاص، مثل محمَّد بن سنان، بعد تلقِّيه الأسرار من الأئمَّة المعصومين عليهم السلام متَّهمٌ بالغلوِّ، وما كان مغاليًا، والأئمَّة عليهم السلام، بعد غلوِّه، أفاضوا عليه الأسرار.

ب. ما ينسبه بعضُ الناس من الغلوِّ إلى محمَّد بن سنان جهلٌ بحاله (فنسبوا إلى الغلوِّ..»، فهل ما كان عليه يعدُّ غلوًّا بحيث يكون موردَ تأييدِ الأئمَّة عليهم السلام!.

ج. إنَّ مقام محمَّد بن سنان لا يعدُّ غلوًّا، فما ذَكَر من أمرين عليه لا يمكن نسبة الغُلاة إلى الأئمَّة عليهم السلام، وأنَّهم عليهم السلام أعلنوا البراءةَ منهُم.

(١) التشيُّع والتصوُّف: ١٠٥.
(٢) طرائق الحقائق: ١/ ١١٦-١١٧.
(٣) لاحظ: التشيُّع والتصوُّف: ١٠٥-١٠٦.

د. ومن غير الانصاف أن يُقالَ عن السَّيِّد إنَّه مغالٍ؛ بسبب تأييده لمحمَّد بن سنان، ويؤيِّده مع أنَّه يظنُّ بأنَّ محمَّد بن سنان مغالٍ، وكذلك معصوم عليشاه؛ فهذا خطأٌ عظيمٌ في حقِّهما.

وأشار صاحب روضات الجنَّات إلى أنَّ السَّيِّد، والشيخ البرسيّ من الغُلاة المفوَّضة، وتصدَّى صاحب طرائق الحقائق بالردِّ على ذلك، ودافع عن البرسيّ، كما أنَّه لوَّح ببراءة ساحة السَّيِّد على هذا الاتِّهام: «أشار السَّيِّد المعاصر صاحب روضات الجنَّات في ترجمته للشيخ البرسيّ، وضمَّنا عدُّه من الغلاة، والتفويض، وهذا يجرُّه شيئًا فشيئًا إلى جملة من العظماء العلماء الشامخين، مثل السَّيِّد رضيّ الدِّين ابن طاووس، وصاحب كشف الغمَّة، وفرات بن إبراهيم الكوفيّ، وجابر بن يزيد الجعفيّ (رضوان الله عليهم)، وأمثالهم؛ أي: مَن كتب عن فضائل أهل البيت عليهم السلام، ومن جاء من بعدهم، يكون كلُّ مَن جاء على إثر هذا المذهب، وأشرب في قلوبهم الملائمة لهذا المشرب، زاد في الطّنبور نغمة، وهتك عصمة[1].

سبحانَ الله ما هذا التَّمثيل الذي ذكره السَّيِّد، وما محلُّه من الكلام، فما ذكر في الكتب من فضائل أجداده يُشبَّهُ بـ(الطّنبور)؛ فويل لمن شفعاؤه خصماؤه»[2].

٢-١-١-٣. الحسن البصريّ:

ذكر القاضي نور الله الشوشتريّ جملة من أقوال الفقهاء الشِّيعة المختلفة في الحسن البصريّ، ونقل عن بعض مشايخه الإشارة إلى السند بأنَّ السَّيِّد له نظر فيه: ذَكر السَّيِّد نور الله الشوشتريّ في المجلس السادس من مجالس المؤمنين، ما يذهب إليه جمهور الفقهاء الشيعة الإماميَّة في شأن الحسن البصريّ، وأحمد الغزاليّ، الواقعَين في سلسلة الصوفيَّة

(١) روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسَّادات: ٣/ ٣٤١.
(٢) طرائق الحقائق: ٢/ ٢٥٦.

خلاف، وآراء لهم فيهم، وينقل السَّـيِّد الشوشـتريّ من أنَّه سمع من مشايخه رحمهم الله تعالى، من أنَّ الحسـن البصريّ مقبولٌ عند السَّـيِّد رضيّ الدين عـليّ ابن طاووس، والله أعلم بالصَّواب»(١).

ولعلَّ منشأ هذا القول من القاضي الشوشتريّ في السَّيِّد نقله جملة من الروايات عن الحسن البصريّ، عن الإمام الوصيّ عليّ عليه السلام، مثلًا في باب القضاء، والقدر(٢)، ومنع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من رجم مجنونة أمر برجمها عمرُ(٣).

«وَ مِـنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْحَافِظُ عِنْدَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ مُؤْمِنٍ الشِّـيرَازِيُّ، فِي كِتَابِهِ الْـمُشَـارِ إِلَيْهِ، بِإِسْـنَادِهِ إِلَى قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَـنِ الْبَـصْرِيِّ، قَالَ: كَانَ يَقْرَأُ هَذَا الْحَـرْفَ صِرَاطُ عَلِيٍّ مُسْتَقِيمٌ، فَقُلْتُ لِلْحَسَنِ: وَمَا مَعْنَاهُ؟ قَالَ: يَقُولُ هَذَا طَرِيقُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَدِينُهُ طَرِيقٌ وَدِينٌ مُسْتَقِيمٌ، فَاتَّبِعُوهُ وَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّهُ وَاضِحٌ لَا عِوَجَ فِيهِ»(٤).

وكـذا في كتاب مهج الدعـوات في موضوع دعاء وما رواه مثلًا مـا جاء عن النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله: «**قَالَ الْـحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا خَلَّفَ رَسُولُ اللهِ لِأُمَّتِهِ بَعْدَ كِتَابِ اللهِ عز وجل أَفْضَلَ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ**»(٥).

(١) طرائق الحقائق: ٢/ ٢٥٦.

(٢) الطرائف: ٢/ ٣٢٩.

(٣) ذكر السَّـيِّد ابن طاووس: «ومن طرائف ما شهدوا به أيضًا على خليفتهم عمر، ومخالفته للعقل والـشرع، وجهلـه بما لا يكاد يخفى عـلى صبيان مدينة نبيِّهم، مَـا ذَكَرَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْـنَدِهِ عَـنْ قَتَادَةَ عَنِ الْحَسَـنِ الْبَـصْرِيِّ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّـابِ أَرَادَ أَنْ يَرْجُمَ مَجْنُونَةً، فَقَـالَ لَهُ عَلِيٌّ عليه السلام: **مَا لَكَ ذَلِكَ، أَمَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ نَفَرٍ، عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْـمَجْنُونِ حَتَّى يَبْرَأَ وَيَعْقِلَ، وَعَنِ الطِّفْلِ حَتَّى يَحْتَلِمَ**. الطرايف في معرفة مذاهب الطوايف: ٢/ ٤٧٣. يلاحَـظ ما ذكره أحمد بن حنبل في مسـنده: ١/ رجم المجنون، والبخارى في صحيحه ٨/ ٢١. (م).

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٩٤-٩٧.

(٥) مهج الدعوات و منهج العبادات: ١/ ٧٩.

٢-١-١-٤. أبا يزيد البسطاميّ، ومعروف الكرخيّ:

يذكر السَّيِّد النَّسب الشريف لآل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وهو أشرف نسب، وما يتَّصل بالسَّيِّدة فاطمة الزَّهراء (سلام الله عليها).

«منها أنَّه لم يكن لأحد من الصحابة أولاد يشاركون أولادَه في الفضيلة، كالحسن، والحسين، وهما سيِّدا شباب أهل الجنَّة ولداه؛ ثمَّ انظرْ إلى أولاد الحسن، مثل الحسن المثنَّى، والمثلَّث، وعبد الله بن المثنَّى، والنفس الزكيَّة، وإلى أولاد الحسين، مثل زين العابدين، والباقر، والصَّادق، والكاظم، والرِّضا؛ فإنَّ هؤلاء الأكابر يقرُّ بفضيلتهم، وعلوِّ درجتهم، كلُّ مسلمٍ، وممَّا يدلُّ على علوِّ شأنهم، أن أفضل المشايخ، وأعلاهم درجةً، أبو يزيد البسطاميّ، وكان سقَّاءً في دار جعفر الصادق، وأمَّا معروف الكرخيّ، فإنَّه أسلم على يدَي عليّ بن موسى الرِّضا، وكان بوَّاب دارِه، وبقي على هذه الحالة إلى آخر عمرِه»[1].

ففي ضوء نصِّ السَّيِّد المتقدِّم، فإنَّه يعدُّ أبا يزيد: «أفضل المشايخ، وأعلاهم درجةً، أبو يزيد البسطاميّ»، وأنَّه لم يقدحْ بأحدٍ منهم، واللافت في كلام السَّيِّد من عدِّه البسطاميّ والكرخيّ الصُّوفيَّين من المتَّصلين بالمعصوم عليه السلام.

وأشار صاحب طرائف الحقائق في موضوعينِ، رأي صاحب حديقة الشِّيعة حول أبي يزيد البسطاميّ من أنَّه ساقٍ في دار الإمام الصَّادق عليه السلام محض افتراء.

قال صاحب الحديقة: ما يُقال من أنَّ أبا يزيد البسطاميّ ساقٍ في دار الإمام الصادق عليه السلام محض افتراء»[2].

(١) الطرايف في معرفة مذاهب الطوايف: ٢/ ٥٢٠

(٢) طرائق الحقائق: ٢/ ١٩٧-٤٣٠.

ويـرى الكاتب: نُقلتْ أقوال في ترجمة أبي يزيد في السِّلسـلة الطيفوريَّة بأنَّه متعدِّد، وسيأتي استقصاء ذلك في ذِكر أحوال الجُنيد البغداديّ.

ولا بأس أن أشـير إلى ما ذكره علم الأعلام، الشيخ البهائيّ، في أوائل الجزء الأوَّل من كشـكوله بعدما ترجم أبا يزيد بشـكلٍ مُختصر: «قال كاتب الأحرف: إنَّ ملاقاة أبي يزيد البسـطاميّ لأبي عبد الله جعفر بن محمَّد الصادق عليه السلام، وكونه سـقَّاءً في داره سـلام الله عليه، أوردهـا جماعة من أصحاب التاريخ، وأوردها الفخر الرازيّ في كثيرٍ من كتبه الكلاميَّـة، وأوردها السَّـيِّد الجليل رضيّ الديـن عليّ بن طاووس في كتـاب الطرائف، وأوردهـا العلَّامـة الحِلِّيّ قـدَّس اللهُ روحَه في شرحـه على التَّجريد، وبعد شـهادة أمثال هـؤلاء بذلـك، لا عبرةَ بـما في بعض الكتـب، كشرح المواقف: مـن أنَّ أبا يزيـد لم يلقَ الإمـام عليه السلام، ولم يدرك زمانـه، بل كان متأخِّرًا عنـه بمدَّة مديدة، وربَّـما يدفع التنافي من البين بجعل المسـمَّى بهذا الاسـم اثنين، أحدهما طيفور السـقَّاء، الذي لقي الإمام عليه السلام، وخَدَمهُ، والآخر شـخصٌ غيره، ومثل هذا الاشتباه يقع كثيرًا، وقد وقع مثلُه في المسمَّى بأفلاطـون، فقد ذَكَر صاحب الملل والنِّحل أنَّ جماعة متعدِّدين من الحكماء القدماء، كلٌّ منهم كان يسمَّى أفلاطون»[1].

وهـذا خلاف مـا ذهب إليه صاحب الطرائق، من أنّ السَّـيِّد ذهـب إلى ذلك فقط «وكان سقَّاءً في دار جعفر الصَّادقِ».

٣-١-٢. المخالف:

لم نعثر عبرَ البحث، والتَّفتيش في كتب السَّيِّد تصريحًا ضدَّ الصوفيَّة، وكذا من كتبَ عنه لم ينقل شـيئًا عنـه، وأمَّا ما يُذكَر من مخالفتـه للصوفيَّة، فلا دليلَ عليه، ولا مسـتندَ يثبتُه.

(١) الكشكول: ١/ ١١٥.

ويتسـأل صاحب طرائق الحدائق بتعجُّبٍ: كيف ينقل ثمَّة أخبار في قدح الصوفيَّة، كما ينقله المحدثون، وبين من يرى محوريَّة الشَّريعة مثل السَّـيِّد؟ فهل يعقلُ أنَّه لم يرَ تلك الاخبار؟.

«تمسَّـك مؤلِّف حديقة الشِّـيعة، وأضرابه، ببعض الأخبار في قدح الصوفيَّة، وكما أنَّ الحـرَّ العامـليّ له رسـالة في الردِّ على الصوفيَّـة، وادَّعى مِن أنَّ هناك ألـفَ خبرٍ عامٍّ، وخاصٍّ، جمعَها في ذلك، وهنا سؤال: هل السَّيِّد ابن طاووس، والشهيدان لم يرويا هذه الأخبار؟ يا عزيزي لاحظ ما قاله الشَّهيد في الدروس في حقِّ الصوفيَّة[1]»[2].

الحُسين بن منصور الحلاج:

أشـير في هذا الطَّرف من الحديث عن الحلَّاج، وما نُسِـب إلى السـيِّد من نظرٍ فيه، يقول صاحب روضات الجنَّات رأي السَّـيِّد في الحُسـين بن منصور الحلَّاج، وأنَّ السَّيِّد لـه تصريحٌ ضدُّه: «قد ردَّ عليه كبار المشـايخ المتقدِّمين، والمتأخِّرين، كالجُنيد، والشَّـيخ أبي جعفـر محمَّد بن عليّ بن الحُسـين بن بابويه القمِّيّ رئيس المحدِّثين المتألِّهين، وشـيخ الطَّائفة أبو جعفر محمَّد بن الحسـن الطوسيّ، والشَّيخ الطبرسيّ، والشَّيخ المفيد، والسَّيِّد المرتضى علم الهُدى، والشَّـيخ جمال الدِّين المطهَّر الحِلِّيّ، والسَّـيِّد ابن طاووس صاحب المقامـات، والكرامات، والشَّـيخ أحمـد بن فهد الحِـلِّيّ المتألِّه شـيخ المتأخِّرين رضي الله عنهـم، وكلُّهم اتَّفقوا على أنَّه من المذمومين، وبعضهم عـلى أنَّه خرجَ من النَّاحية توقيعٌ بلَعنِه..»[3].

(١) لا بأس بنقل ما قاله الشهيد الأوَّل في الدروس: «والصُّوفيَّة المشتغلون بالعبادة، المعرضون عن الدنيا..». الدروس الشرعيَّة في فقه الإماميَّة: ٢/ ٢٧٥. (م)

(٢) طرائق الحدائق: ٢/ ٢٨٥.

(٣) روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسَّادات: ٣/ ١٤٤.

لا يخفى أنَّ هذه النِّسبة من صاحب الروضات لا دليلَ عليها، وأنَّا لا نملكُ تأييدًا يُمكن استنباطُه من كلام السَّيِّد في الحلَّاج.

٢-٢. نظر الصوفيَّة في السَّيِّد ابن طاووس:

عرضْنا في ما تقدَّم من نظريَّات مختلفة حول نسبة السَّيِّد إلى التصوُّف، ونقلنا هذه النَّظَرات بشكلٍ مباشرٍ، وغير مباشر، من كلمات الأعلام.

وبصرف النَّظَر عن تبعيَّة، واستمرار مدرسة السَّيِّد في المتصوَّفة بنحوٍ قليلٍ، إلَّا أنَّ أكابر المتصوِّفة ذكروهُ، وهذا أمرٌ مُحرزٌ.

وذَكَر بعض المحقِّقين أنَّ الخواجة نصير الدين الطوسيّ، والسَّيِّد ابن طاووس من نظر المتصوِّفة متصوِّفة[١].

ومن هنا عدَّ بعض الصوفيَّة «السَّيِّد ابن طاووس، صاحب المقامات والكرامات..»[٢].

«ويتَّفق الموافق، والمخالف، من أنَّ رضيّ الدين عابدٌ زاهدٌ مُستجابُ الدُّعاء»[٣].

«منها كونه من جملة العَبَدة الزَّهَدة المستجابي الدَّعوة بنصِّ الموافقين لنا، والمخالفين»[٤].

ذَكَر معصوم عليشاه صاحب (طرائق الحقائق)، في بدايات الجزء الأوَّل من كتابه، بعد بيان مقاصد الصوفيَّة، وتعريف الصوفيّ، والتصوُّف، وتناول النظريَّات المختلفة في

(١) التشيُّع والتصوُّف: ١٠٦، نقلاً عن الطرائق والحقائق: ١/ ١٢٢.
(٢) رواضات الجنَّات: ٣/ ١٤٤.
(٣) التشيُّع والتصوُّف: ١٠٦.
(٤) رواضات الجنَّات: ٤/ ٣٣٠.

هذا المجال، ترجمةً للسيَّد بعنوان عارف (= صوفيّ)، ولكن لم يشرْ إلى دليلٍ من أنَّ السَّيِّد لـه علاقة بالفِـرق الصوفيَّة أبدًا، مـع أنَّ الصوفيَّة الحقَّة الشـيعة محورها الشريعة، وغير الشيعيّ ليس كذلك؛ ولذا وقعُوا في انحرافاتٍ نظريَّةٍ، وعمليَّة[1].

ويعدُّ عليشـاه في موضع آخر من كتابه من أنَّ السَّيِّد من مشايخ الصوفيَّة، ولكنَّه لم يذكرْ توضيحًا لذلك.

وأنَّ عليشـاه ينقـد ما ذكـره الملَّا الجامـيّ؛ إذ يقول الجامـيّ إنَّه ذَكَر جميع مشـايخ الصوفيَّـة في كتابـه: النفحات، ويعترض عليشـاه من أنَّ الجامي لم يذكر السَّـيِّد، مع أنّه يزعـم في كتابه ذِكر جميع المتصوِّفـة: «قال الملَّا الجاميّ من أنَّ كتابـه النَّفَحات ذَكَر جميع مشـايخ المتصوِّفة، مع أنَّ هناك مَن لم يذكره، مثلًا سلطان العارفين، وبرهان الواصلين، الشيخ صفيّ الدين الأردبيليّ، نوَّر الله برهانه؛ فهو أشهر من الشَّمس في العلم، والعمل، والفضل، والحال والمقام والكرامات، مع أنَّه ذكَرَ مشـايخ النقشـبنديَّة، وذَكَر أشخاصًا غير معروفين، ولم نسـمعْ بهم، وكذلك لم يذكر السَّيِّد الكبير عليّ بن طاووس، صاحب الكرامات، والمقامات، والشيخ ابن فهد الحِلِّيّ المشهور بالآفاق بالزُّهد، والورع والكمال؛ فكتبُه مشهورة في بيان دقائق أسرار الصوفيَّة، وأمثالهما من الصوفيَّة الإماميَّة لم يذكرهم؛ لتعصُّبه، ومخالفتهم طريقته»[2].

ولعلَّ الملَّا الجاميّ لم يعدّ السَّيِّد أساسًا من مشايخ المتصوِّفة، ولكنَّ المجلسيّ الأوَّل، كصاحـب الطَّرائق، سـجَّل ملاحظة عـلى الملَّا الجامـيّ: «لم يذكره؛ لتعصُّبـه، ومخالفته لطريقته»[3].

(١) الطرائق والحقائق: ١/ ٢٨٤-٢٨٥.
(٢) المصدر نفسه: ٢٨٢.
(٣) رسالة تشويق السالكين: ٢٠-٢١.

ونقل صاحب الطرائق عن بعض الصوفيَّة، وما يذكرونه، وما يقوله جملة من العلماء، من أنَّ السَّيِّد مبرَّأٌ من الصوفيَّة: «أقول: ونُسِب ابن طاووس، والخواجة نصير الدين، وابن فهد، والشَّهيد، وشيخنا البهائيّ، وجدِّي العلَّامة، يعني محمَّد تقي المجلسيّ، وغيرهم من الأجلَّة، إلى التصوُّف، وغير خفيٍّ أنَّ ضررَ التصوُّف، إنَّما هو فساد الاعتقاد من القول بالحلول، أو الوحدة في الوجود، أو الاتِّحاد، أو فساد الأعمال المخالفة للشرع التي يرتكبها كثيرٌ من المتصوِّفة في مقام الرياضة، أو العبادة، وغير خفيٍّ على المطَّلعين على أحوال هؤلاء الأجلَّة أنَّهم منزَّهون عن كِلَا الفسادَينِ قطعًا»[1].

وأشار كاتب كتاب التشيُّع والتصوُّف إلى هذه النكتة أيضًا[2].

وكتب عن آل طاووس بعد السَّيِّد: كان فيما سَلَف من الزمان العلوُّ الروحيّ الكبير، وإظهار الكرامات لآل طاووس واضح، وآنستْهُ الناس، ومن تلكم الشخصيَّات السَّيِّد عبد الكريم أحمد بن طاووس (٦٤٨-٦٩٣هـ) «استغنى عن المعلِّم في أربعين يومًا، وعمره إذ ذاك أربع سنين»[3]، و«حفظ القرآن في مدَّة يسيرة، وله إحدى عشرة سنة»[4]، وهذه المواصفات للأولياء الكبار من الصوفيَّة؛ ولعلَّ بسبب ذلك عدُّوهُ من الصوفيَّة؛ فكانت الحِلَّة يسودُها الجوُّ الروحيّ الشديد، بحيث دُمِج التشيُّع، والتصوُّف معًا؛ فالسَّيِّد كان ثمرة هذا الامتزاج، فهو من علِّيَّة العلويِّين، وزهد المتصوِّفين، ولاسيما أنَّه تلقَّى العلم على يد أبيه وعمِّه، والخواجه نصير الدين الطوسيّ (...-٦٧٢هـ)، والعلَّامة الحِلِّيّ (٦٤٨-٧٢٦هـ)؛ فانعكس كلُّ ذلك عليهِ[5].

(١) الطرائق والحقائق: ٢/ ٢٢٨-٢٠٢.
(٢) التشيُّع والتصوُّف ١٠٤، نقلًا عن الطرائق والحقائق: ١/ ١٢٢.
(٣) روضات الجنَّات: ٤/ ٣٦١.
(٤) منتهى المقال: ١٨٠.
(٥) راجع على سبيل المثال: روضات الجنَّات: ٤/ ٣٦١، التشيُّع والتصوُّف: ١٠٧، أمل الآمل،=

٢-٣-١. نقدٌ ونظرٌ:

أشير هنا إلى جملةٍ من الملاحظات النقديَّة حول النظريَّات المتقدِّمة:

٢-٣-١. كان العنوان المتقدِّم: تأثُّرات السَّيِّد، وتقدَّم من كلام المرحوم المحدِّث النوريّ، أنَّ علماء المسلمين والصوفيّة يشتركون بهدفٍ، وإذا اعتبرنا هذا تأثُّرًا؛ فيمكن عدُّهُ تأثُّرًا بالطبقَتَين، ولكن ينبغي التَّفكيك بين نظريَّة المحدِّث؛ فالسَّيِّد مبرَّأٌ عن إبداع الأعمال، والعمل بالمنهيَّات، والرِّياضات غير الشرعيَّة التصوُّفيَّة، ومن هنا السَّيِّد من المقطوع به أنَّه لم يتأثَّر بهؤلاءِ، وأمَّا ما يتَّصل بالتلقِّي المتعال (المعرفة وما فوقها)؛ فلا ينبغي إنكارُها؛ فهل السَّيِّد تأثَّر بالإمام الصَّادق عليه السلام في كتاب (مصباح الشريعة)، أم بالمتصوِّفة، مع أنَّ السَّيِّد يوصي بكتاب (مصباح الشريعة)؛ لأنَّه للإمام الصَّادق عليه السلام، وهذا يدلُّ على أنَّ السَّيِّد ينطلقُ من ذلك في الشَّريعة، والعِرفان.

إنَّ السَّيِّد يجعل من سنَّة الأئمَّة عليهم السلام هي العُليا، وهذا واضحٌ جدًّا في فِكرِ السَّيِّد.

٢-٣-٢. ذَكَر السَّيِّد في طيَّات كلمات المرحوم المحدِّث النوريّ، مدرستَه، ومنهجَه، ومن جهة الشريعة، ومحوريَّة الفقه، وسلوك السائلين أصل لهُ، ومن جهة المسائل ذات الصِّلة بالتلقِّي المتعالي يقبله، وتقدُّم عنوان المكاشفة، والشُّهود، والمدد الإلهيّ، وفي نظر السَّيِّد (خلافًا لنظر المحدِّث النوريّ) ثمَّة مقامات يمكن للنبيّ صلى الله عليه وآله، والإمام عليه السلام، وغيرهما الوصول لها أيضًا، وتقدَّم الحديث في الدفاع عنِ المكاشفة.

٢-٣-٣. اعتقد أنَّ منشأ القول بالشخصيَّة المعنويَّة للسيِّد بين عامَّة عُلماء الإسلام؛

=القسم الثاني: ٤٨، منتهى المقال: ١٨٠.

لأنَّـه كان محور اعتماده الشَّرع، والفقه، وليسـتِ الكرامات، والمقامات؛ فيجب إدراكه، وتجربته من الجميع.

ولاحظنا ما سجَّله المرحوم النوريّ من نقدٍ على المتصوِّفة بوصفهم أضافوا جملةً من المسائل إلى الشَّرع، وتقدَّم أيضًا ما قاله العلَّامة المجلسيُّ في خصوص أواخر دعاءِ عرَفة، وعدَّه من كلام المتصوِّفة.

وتقدَّم ما سـطرَهُ بعضهم عن السَّـيِّد من إنشـائه الدُّعاء، وبيـان أسرار العبادات، وجعـل وظائـف مقـرَّرة في أماكـن مكرَّمـة، ومواقـف صالحـة، كـما نطالـع في كتب السَّيِّد[1].

ومـع هذا، فهو صاحـب كرامات، ومقامات، ولا يعدُّ مـن المتصوِّفة؛ ولعلَّه أيضًا لا يقبل من إطلاق صوفيّ متشرِّع عليه؛ فالسَّـيِّد عارفٌ شـيعيّ، ومتشرِّع، وربَّما بين غير المعصوم لا نظيرَ له.

٢-٣-٤. عبر ما تقدَّم، لم نسـتطعِ الحصول على الحلقة المفقودة بين السَّيِّد، والفِرق العرفانيَّـة، ولا نملـك دليـلًا على ذلك، مع أن السَّـيِّد قال: تنتهي سلسـلة الصوفيَّة إلى الإمـام عليّ عليه السلام[2]، وهذه النِّسـبة يمكن عدُّها نحـوًا من تأييد للصوفيَّة المتشـرِّعة، كما قال بذلك صاحب الطَّرائق[3]، والمجلسـيّ الأوَّل[4]، ومع هذا كلِّه، لم نلحظْ أيَّة إشارة لعلاقتـه وارتباطه بالعُرفاء، وينبغي بذل الجهود من قبل المحقِّقين في العثور على وثائق، وأدلَّة تثبت علاقته بالطوائف الصوفيَّة؛ فهو بحثٌ يستحقُّ التَّحقيق والتَّقدير.

(١) لاحظ: روضات الجنَّات: ٤/ ٣٣٠.
(٢) لاحظ: الطوائف: ٢/ ٥١٨.
(٣) طرائق الحدائق: ١/ ١٨٤-١٨٥.
(٤) رسالة تشويق السالكين: ٢٢.

ولكن ربَّما يحتاج بعضهم إلى تأييد طريقته بطريق السَّـيِّد وسـلوكه، أو طريق السَّيِّد بهؤلاءِ.

ولكنَّ العمل بسيرة السَّيِّد وسلوكه أفضل طريق لإثبات الانتساب لطريقته.

٢-٣-٥. إنَّ تخصُّص السَّـيِّد الأسـاس، هو الحديث ميلـه إلى الأحاديث المأثورة؛ فجميـع آثاره تقريبًا يغلب عليها الطابع الحديثيّ؛ فالسَّـيِّد، كعلماء المسـلمين، يجعل من الحديث مصدرًا أساسًا للدِّين.

من الملاحظات في آثار السَّيِّد، إنَّه قليلًا ما ينقل رأي غير المعصوم عليه السلام، وإذا ذكرها، فتقـع في خاتمـة حديثه؛ فلا يروق للسـيِّد أن ينشـغل بالمصادر غير الدينيَّـة؛ فهو يعدُّها فاصلة بينه وبين المصادر الدينيَّة.

«.. لم يبقَ للإماميَّة مفتٍ على التَّحقيق؛ بل كلُّهم حاكٍ، وكان ذلك الزَّمان فيه جماعة مـن أصناف العلماء، وليـس في وقتنا الآن من يقاربهم في تلك الأشـياء، وأنا أعتذر لهم بطـول الغيبـة، وتباعد الزَّمان عـن الأدلَّاء الذين كانوا رحمةً لله جل جلاله في حفظ واشـتغال وإدراك، والآن فقـد ظهـر أنَّ الذي يُفتـى به، ويُجاب عنه على سـبيل ما حفظ من كلام العلماء المتقدِّمين، وهذا طريقٌ سـهلٌ ما يعجز عنه إلَّا مسـكين، و مَنْ همَّته همَّة ضعيف مهين»[1].

(١) والنَّص بنحوٍ كامل: «وأعلم أنَّ جدَّك ورَّامًا قدَّس الله روحه، كان يقول لي وأنا صبي ما معناه: يا ولدي مهما دخلت فيه من الأعمال المتعلِّقة بمصلحتك، لا تقنع أن تكون فيه بالدُّون دون أحد من أهل ذلك الحال، سواء كان علمًا أو عملًا، ولا تقنع بالدُّون. وذكر أنَّ الحمصيّ حدَّثه أنْ لم يبقَ للاماميَّـة مفتي على التحقيق، بل كلُّهم حـاكٍ، و كان ذلك الزمان فيه جماعة من أصناف العلماء، وليس في وقتنا الآن، من يقاربهم في تلك الأشـياء، وأنا اعتذر لهم بطول الغيبة، وتباعد الزمان، عن الأدلاء، الذين كانوا رحمة لله جل جلاله في حفظ واشـتغال وإدراك. والآن فقد ظهر أنَّ الذي يُفتى به، ويُجاب عنه على سبيل ما حفظ من كلام العلماء المتقدِّمين، وهذا طريق سهل، ما يعجز عنه=

هذا هو المهمُّ معرفته في السيرة السُّلوكيَّة للسَّيِّد؛ فكان يفضل الطَّريق من دون واسطة للمعرفة، والوصول لها؛ فيعتمد الفطرة والنقل، وأنَّه يعتقد أنَّ الأدعية، والزِّيارات، والمناجاة، نحو ارتباط، وعلاقة من دون واسطة؛ ولعلَّ ما يؤيِّد هذا أنَّه لم يُذكرْ بسلسلة العرفاء؛ فربَّما أنَّه سلك السلوك العرفانيّ من دون أستاذ (أويسيّ).

ويعتقد السَّيِّد أنَّ الطريق في عصر الغيبة مفتوحة إلى الإمام صلوات الله عليه، ولكن بعناية وتفضُّل الله عزَّ وجلَّ: «والطَّريق مفتوحة إلى إمامك عليه السلام، لمن يريد الله جلَّ شأنه عنايته به، وتمام إحسانه إليه»(١).

فإذا قال السَّيِّد إنَّ الطَّريق مفتوح إلى الإمام عليه السلام، فهو يقينًا مفتوح، فهو لا يقول كلامًا محضًا، وإنَّما يقوله بثقةٍ، وربَّما جرَّبه، فيرى الطريق مفتوحًا، وميسورًا، وتكرَّر له حضوره ودركه لولي الله الأعظم الإمام المهديّ عجَّل الله تعالى فرجه الشريف(٢).

وربَّما كثيرٌ من طالبي المعرفة، بحسب ما لهم من قابليَّة، يحتاجون إلى إذنٍ من أولياء الله تعالى، وأمَّا الأوحديّ من الأشخاص، الذين وصلوا إلى حضرة الإمام وليِّ العصر الأعظم، فلا يحتاج إلى مباني السلوك؛ ولذا لا يحتاجون في ذلك إلى الفِرَقِ، والمدارس، والمباني العرفانيَّة، وليس هناك من لهُ الأهليَّة ليكون أستاذًا لهم، مثل: بايزيد، ومعروف الكرخيّ، والسَّيِّد أيضًا بحثَ هذه الفئة.

ونطالع ما كتبه السَّيِّد لولدِه في وصيَّته، أعني كتاب (كشف المحجَّة): «فإن أدركت يا ولدي موافقة توفيقك لكشف الأسرار عليك، عرَّفتك من حديث المهدي صلوات عليه ما لا يشتبه عليك، وتستغني بذلك عن الحُجج المعقولات،

=إلَّا مسكين، ومَن همَّته همَّة ضعيف مهين. كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٨٥.
(١) المصدر نفسه: ٢١٢.
(٢) مهج الدعوات: ٢٩٦، جمال الأسبوع: ٣٠.

ومن الروايات»[1].

وهذه الملاحظة: وهي الاستغناء عن الآخرين بالملاقاة، والاتِّصال بولي الله الأعظمﷺ دقيقة جدًّا، ومسلَّمة في السلوك العرفانيّ؛ فكلُّ سالكٍ يصلُ إلى شيخه ومُراده، لا يحتاج إلى شيء آخر حينئذٍ.

ثمَّ يكمل في وصيَّته لولده: «فإنَّه صلَّى الله عليه حيٌّ موجودٌ على التَّحقيق، ومعذور عن كشف أمره إلى أن يؤذن له تدبير الله الرَّحيم الشَّفيق، كما جرتْ عليه عادة كثير من الأنبياء، والأوصياء؛ فاعلم ذلك يقينًا، واجعله عقيدةً، ودينًا؛ فإنَّ أباك عرفه أبلغ من معرفة ضياء شمس النَّهار»[2].

٢-٣-٦. يعدُّ السَّيِّد ممَّن يعتقد بعدم انفكاك معرفة الله تعالى من دون الاعتناء بمعرفة وليّ الله الأعظمﷺ، كما عدَّ بعض هذا لا ينسجم مع العرفان.

ويشير السَّيِّد في فقدان إمام العصرﷺ: «إنَّني وجدت أنَّه لو ذهب مَن الذي يعتقد إمامته عبد، أو فرس، أو درهم، أو دينار، تعلَّق خاطره، وظاهره، بطلب ذلك الشيء المفقود، وبذل في تحصيله غاية المجهود، وما رأيت لتأخِّر هذا المحتشم العظيم الشَّأن عن إصلاح الإسلام والإيمان، وقطع دابر الكفَّار، وأهل العدوان، مثل تعلُّق الخاطر بتلك الأشياء المحقَّرات؛ فكيف يعتقد من يكون بهذا الصِّفات أنَّه عارفٌ بحقِّ اللهﷻ، وحقِّ رسوله ﷺ، ومعتقدًا إمامته على الوجه الذي يدَّعي المغالاة، والموالاة لشريف معاليهِ»[3].

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٠٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) وانقل نصَّ كلامه للفائدة: «وأوصيك يا ولدي محمَّد، وأخاك، ومن يقف على كتابي هذا، بالصدق في معاملة اللهﷻ، ورسوله ﷺ، وحفظ وصيَّتهما بما بشَّرا به من ظهور مولانا=

=المهـدي عليه السلام، فإنِّني وجدت القول والفعل مـن كثير من الناس في حديثه عليه السلام مخالفًا للعقيدة من وجوهٍ كثيرة:

منهـا: أنَّنـي وجدت أنَّه لو ذهب من الـذي يعتقد إمامته عبد أو فرس أو درهـم أو دينار، تعلَّق خاطـره وظاهـره بطلب ذلك الشيء المفقـود، وبذل في تحصيله غاية المجهـود. وما رأيت لتأخُّر هذا المحتشـم العظيم الشأن عن إصلاح الإسـلام والإيمان، وقطع دابر الكفَّار وأهل العدوان، مثـل تعلُّق الخاطر بتلك الأشـياء المحقَّرات، فكيـف يعتقد من يكون بهذا الصفـات أنَّه عارف بحقِّ الله جل جلاله، وحقِّ رسوله صلى الله عليه وآله، ومعتقدًا إمامته على الوجه الذي يدَّعي المغالاة والموالاة لشريف معاليه.

ومنهـا: أنَّني وجدت من يذكر أنَّه يعتقد وجوب رئاسـته، والضرورة إلى ظهوره، وإنفاذ أحكام إمامته، لو واصله بعض من يدَّعي أنَّه عدو لإمامته من سـلطان، وشـمله بأنعامه، كان قد تعلَّق خاطره ببقاء هذا السـلطان المشـار إليه، وشـغله ذلك عن طلب المهدي عليه السلام، وعمَّا يجب عليه من التمنِّي لعزل الوالي المنعِم عليه.

ومنهـا: أنَّني وجـدت من يدَّعي وجوب السرور بـسروره، والتكدُّر بتكـدُّره صلوات الله عليه يقـول: إنَّـه يعتقد أنَّ كلَّ ما في الدنيا قد أخذ من يد المهدي عليه السلام، وغصبه الناس والملوك من يديه، ومع هذا لا أراه يتأثَّر بذلك النهب والسَّلب كتأثُّره لو أخذ ذلك السلطان منه درهمًا أو دينارًا أو ملكًا أو عقارًا، فأين هذا من الوفاء ومعرفة الله جل جلاله، ورسوله صلى الله عليه وآله، ومعرفة الأوصياء.

ومنهـا: أنَّنـي قلت لبعض من يدَّعي الحرص على ظهوره، والوفاء له، والتأسُّـف عليه: ما تقول لو أنفذ إليك المهدي عليه السلام، و قال لك: إنِّي قد عرفت من جهة آبائي عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله بطريق محقَّـق اعتمدت عليه أنِّي متى ظهرت الآن، فإنَّ سـاعة ما تقع عينك عـليَّ تموت في الحال، ومتى تأخَّرت عن الظهور، عشت عشرين سنة ممتَّعا مسرورًا بالأهل والولد والمال، أ فليس كنت تختار تأخُّر ظهوره؛ لأجل حياتك الفانية؟.

ومنهـا: أنَّني قلت لبعض من يدَّعي مغاليًا في موالاته عليه السلام: لو أنفذ إليك، وقال لك: إنَّ سـلطان بلادك يعطيك بعد هذا اليوم كلَّ يوم ألف دينار، ثمَّ أعطاك السـلطان مسـتمِرًّا على التكرار كلَّ يوم جملة هذا المقدار، وقال عليه السلام: هو لك حلال زمن الغيبة.

ثـمَّ أنفذ إليـك عليه السلام، وقال: أنا قد أذِن لي في الظهور، وهذا العطاء ما كان بإذني، ولا تسـتحقُّه إلَّا مع غيبتي، فأيُّنا أحبُّ إليك، أظهر وأقطع بهذا العطاء، وأحاسبك على كلِّ ما فضل عن مؤنتك، وأجعـل هذا الإدرار لبعضٍ من بينك وبينه عداوة دنيويَّة، ممَّن منزلته في الظاهر دون منزلتك،=

الخاتمة

أعرض في هذه الخاتمة نتائج الدراسة على نحو الآتي:

١. آل طاووس عُدُّوا من ذوي الفضل. وكان أبو القاسم رضيّ الدين عليّ بن طاووس (المولود سنة ٥٨٩هـ، والمتوفَّى سنة ٦٦٤ هـ) أبرزهم من حيث الفضائل، والكمالات، والملكات الروحيَّة، والأخلاقيَّة.

كان مختصًّا في الحديث، والدُّعاء، والفقه، والكلام، والعرفان، وغير ذلك، والأعمال التي وصلت إلينا منه يغلب عليها الطابع الحديثيّ، مع ميل واضح إلى الأدعية.

وكان معاصرًا لعدد من كبار العلماء والسياسيِّين، مثل خواجة نصير الدين الطوسيّ، وقد يكون زميله في الدِّراسة، كما كان معاصرًا له، ومن المحتمل أنَّ ابن طاووس لم يكن غافلًا عن الأفكار العلميَّة، والعرفانيَّة المعاصرة له.

٢. العرفان عند السَّيِّد ابن طاووس: معرفة ذات الله، وصفاته، وأفعاله، عن طريق الفطرة والوحي، والأنبياء والأوصياء عليهم السلام بحسب علمه، ومقدرته جل جلاله، كما أنَّه يعتقد أنَّ العرفان عطيَّة من الله تعالى، من دون تحدُّدٍ بزمان، وهو من يعطي الأهليَّة، والاستعداد للإنسان، وعبر المعرفة، والالتزام بالشريعة حتَّى يصل إلى الرُّؤية الكونيَّة التوحيديَّة، والتقرُّب إلى الله عزَّ وجلَّ.

=فأيُّها كان أحبُّ، إليك أن تطول غيبته وتأخذ العطاء كلَّ يوم ألف دينار، أو يتعجَّل ظهوره ويحاسبك عليها ويقطعها ويردَّها إلى عدوك؟ عرفنا ما يكون في قلبك من الاختيار، وأعرف من الوجوه غير ما ذكرته الآن». كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٢٠٦ (م).

٣. نطالع في فكر السَّيِّد أنَّ العُمدة عنده العمل الذي يترشَّح منه البُعد العمليّ العرفانيّ، مع أنَّ الجوانب النظريَّة، والعلميَّة للعرفان تظهر أيضًا في آثاره.

وقد تجمَّعت أفكاره العرفانيَّة العلميَّة في ثلاثة محاور رئيسة:

- المعرفة (نظريَّة المعرفة).
- معرفة الله (الإلهيَّات).
- معرفة الإنسان (الأنثروبولوجيا).

٤-١. نظريَّة المعرفة: يمكن تصنيف طرائق المعرفة عند السَّيِّد ابن طاووس على قسمَين عامَّين: الطَّريق المباشر (بلا واسطة)، والطريق غير المباشر (مع واسطة)؛ فالطريق المباشر: طريق الفطرة، وطريق الكشف، والشهود.

أمَّا الطريق غير المباشر فينقسم إلى: طريق النقل، وطريق العقل.

عبَّر السَّيِّد ابن طاووس عن طريق الفطرة بتعبيراتٍ مثل: (الفطرة الأوَّليَّة)، و(الفطرة الأزليَّة).

وأنَّ الفطرة هي طريق من دون واسطة، وهي تمثِّل المرحلة الأولى، ورأس المال لجميع الناس، وأنَّ السَّيِّد يرى أنَّه يُفترض بالمعرفة أن تكون سهلة، وقريبة، وبعيدة عن المخاطر، وهذا ما توِّفره المعرفة الفطريَّة.

وبحسب اعتقاده، فهذا النّحو من المعرفة هو مرتبة من مراتب العلم الحضوريّ بذات الله وصفاته ﷻ، وهذا الطريق بين الإنسان والله، ولا واسطة في البين؛ ولذا فهو أخصر الطرائق، وبنحو مباشرة يصل إلى المقصود، ويسمِّيه السَّيِّد: (فطرة الأوَّليَّة)، و(الفطرة الأوَّليَّة).

والمرحلة الراقية، والعالية بواسطة العبادات، والأعمال الصَّالحة، مع تكامل النَّفس، وتتمركز حول التفات القلب بساحة القدس الإلهيّ، وهو ما يحصل للأوحديّ من النَّاس، وما فيه من الكشف، والشهود، وهو أهمُّ طريق في المعرفة في العرفان، ومع ذلك، يرى السَّيِّد أنَّ كلَّ شيء لا يُدرَك تمامًا بالمكاشفة؛ إذ يقول إنَّ الأنبياء أنفسهم، وهم أهل المكاشفة، وأنَّ إدراكهم محدود بالنِّسبة إلى علم الله المطلق، ولهذا يحتاجون دومًا إلى العون الإلهيّ.

كذلك يؤمن السَّيِّد ضرورة الإذن في العرفان، علمًا وعملًا، من المرشد المأذون، مثل الأئمَّة الأطهار عليهم السلام، الذين يُعدُّون وسائط هذا الإذن، والإذن من الله تعالى، أو من شيخه ومرشده بعنوان الواسطة، والإذن مثلًا في: الإظهار، والتصرُّف، والحركات، والسَّكنات.

وتتَّضح أهميَّة مبدأ الإذن في فكره باعتماده الكبير على الاستخارة؛ إذ كان يعدُّها نوعًا من طلب الإذن من الله تعالى قبل الإقدام على أيِّ أمرٍ.

ويعدُّ النَّقل من الطرائق للمعرفة، ويحصل بالواسطة والكسب، والهدف من هذا الطَّريق هو الوصول إلى معرفة ذاته تعالى، وصفاته، وأفعاله، وتقوية الفطرة، كما أنَّ النَّقل يمدُّ،ويساعد الفطرة لمعرفة المبدأ الإلهيّ، ومن هنا فالمعرفة في ضوء معطيات النَّقل تزداد، وتتقوَّى بمساعدة الكتب السماويَّة، والأنبياء، والأوصياء (عليهم صلوات الله).

وممَّا ينبغي الإشارة إليه أنَّ السَّيِّد لا ينكر المعرفة الكسبيَّة، والنظريَّة؛ ولذا نرى السَّيِّد يكرِّر في وصيَّته لابنه مراده من أنَّ الفطرة طريق الأوَّليَّة، والأولويَّة لا يعني إلغاء ما عداه من الطَّرائق، وضرورة النَّظر، والاستدلال؛ بل لعلَّه يصبح أحيانًا النَّظر واجب

على المكلَّف فيما يجب عليه، مع أنَّ السَّـيِّد لا يعتمد العقل بوصفه طريقًا مستقلًّا، ويعدُّ السَّـيِّد هذا النحو من المعرفة، مع أنَّها مع الواسـطة، لكنَّها متساوية، وهي عطيَّةٌ من الله تعالى؛ لأنَّ كلَّ ما حصل جميعها منه تعالى.

٤-٢. معرفة الله تعالى: أفكار السَّـيِّد في مجال معرفة الله (توحيد الذات والصفات والأفعال)، صُنِّفت بعنوان (التوحيد النظريّ)، وعدَّت من أصول العرفان العلميّ.

أ) مـن وجهة نظره، إضافةً إلى أنَّ معرفة ذات الله تعالى على وجه التَّحقيق غير ممكنة؛ فإنَّ العقول المحدودة لا يمكنهـا الإحاطة بعلمه اللامحدود. ومع ذلك، يرى أنَّه بالمقارنة مع سائر أنواع المعرفة، لا تُقاس أيٌّ منها بعظَمَة معرفة الذات المقدَّسة، وصفاته تعالى.

أمَّا أهمّ مسـألة في توحيد الأفعال عند السَّـيِّد، فهي مسـألة المالكيَّـة المطلقة؛ ففي اعتقاده أنَّ ملكيَّة الله تعالى شاملة وجارية في كلِّ شيء.

ب. يرى السَّـيِّد أنَّ السـلوك العلميّ، والعمليّ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمسألة المالكيَّة المطلقـة، وذلك ببيـان مفاهيم مثل المعرفة، والمراقبة، والمحاسـبة. وهـو يعتقد أنَّه ليس سوى الله تعالى، الذي هو المالك المطلق، والغنيِّ بالذات، على حين أنَّ جميع الموجودات بحسب حقيقتها وماهيَّتها فقيرة، وقد غمر الفقرُ ذواتَهم كلَّها، وكذلك الإنسان؛ فهو في جميع أحواله فقير على الدَّوام.

ج) الربوبيَّـة هـي أحد شـؤون توحيد الأفعال. ويرى السَّـيِّد أنَّ مُقتـضى الربوبيَّة هو تـولِّي الله تعالى تربية جميع الموجـودات، وتجلِّيات ربوبية الله (جـلَّ وعلا) ظاهرة في كلِّ مشـهدٍ، ومكان، في الطبيعة، والسـماء، والأرض، والغابات، والإنسـان، والروح، والجسد، وفي إرسال الرسل، وبعث الأنبياء، وتربية الأنبياء، والأوصياء، وهداية البشر على أيديهم؛ بل حتَّى القيامة، ويوم الجزاء من شؤون ربوبيَّته تعالى.

ويَعدُّ السَّـيِّد أيضًا المعرفة الفطريَّة التي أودعها الله في الإنسـان من مظاهر ربوبيَّته تعالى أيضًا.

٤-٣. معرفـة الإنسـان: يمكن عـدُّ (النـوَّاب الكاملـون) من المسـائل المهمَّة في العرفـان العلمـيّ، من منظار السَّـيِّد، فهـؤلاء الكاملـون يكونون واسـطة بينهم وبين الله عزَّ وجلَّ، وبالاصطـلاح المنحـوت (النـواب الكُمَّـل)، ويُطلـق عليهـم السَّـيِّد: نوَّابُـه الكاملين.

يعتقد السَّـيِّد أنَّ طريـق الأنبياء (صلَّى الله عـلى نبيِّنا وآله وعليهم السـلام) للأمم السابقة مطابق لما جاء في الكتب السماويَّة، وبعبارة أخرى: يَعدُّ السَّيِّد الأنبياء في الأديان السماويَّة هم النوَّاب الكاملين، والواسطة لمعرفة الله عزَّ وجلَّ.

أمَّـا في النظرة الخاصَّة، أي ضمن الإسـلام؛ فـإنَّ الأئمَّة الأطهـار عليهم السلام هم أولئك النُوَّاب الكاملون أنفسهم.

ويـرى أنَّ رسـول الله صلى الله عليه وآله هـو أعظـم الخلائـق عنـد ربِّ العالمين، وهـو الأفضل والأكمل والأعرف بالله تعالى، الذي ألبسه الله خلعة الاصطفاء والاختصاص، ويصف السَّـيِّد العترة النبويَّة الطاهرة بأنَّهم: اللطف الإلهـيّ، القطب، حافظو الأمانات الإلهيَّة، والمقامات المحمَّديَّة، ودليل بقاء الدُّنيا، وأهلها.

ويُشـير إلى أنَّ من بين أهل بيت الله تعالى الـوصيّ، الإمام عليّ عليه السلام، ويصفه بألقاب مثل: الواهـب الأعظم عليه السلام، أكمل الوصيِّين، وإمام المتَّقين، والكاشـف بالإذن المقدَّس المكين أسرار ربِّ العالمين.

ويـرى أنَّـه في عـصر الغَيبة، فـإنَّ الطريـق للوصـول إلى وليّ الله الأعظـم، الإمام المهدي عليه السلام، مفتوحٌ بإرادةٍ، ولُطفٍ، وإحسانٍ من الله جلَّ شأنُه.

٥. رؤيته في تعريف الدُّعاء، ومكانته: يُعرِّف السَّـيِّد الدعـاء بأنَّه مناجاةٌ، وعبادةٌ، ويعتقـد أنَّ العبـادة الخاصَّة به تعـالى هي عبادةٌ لجمالـه الإلهيّ؛ ولذلك يجـب أن يكون الدُّعـاء موجَّهًـا إليـه وحدَه، لا مـن أجل الثـواب، أو الخوف من العقـاب؛ بل لأجله سبحانَه؛ فحسب.

٦. أهـمُّ أصول السـلوك السـائلين في العرفان العمليّ عند السَّـيِّد، هـي: التوحيد العمـليّ، المناجـاة، والدُّعاء، الجهاد، المحاسـبة، التـوكُّل، الإخلاص، المعرفـة، الذِّكر، الفقـر، المراقبة، والأدب؛ فمضامـين كتبه وآثارها جميعها تدور حـول مفهوم (المراقبة) في العلاقـات الظاهريَّـة، والباطنيَّة؛ أي مراقبة النَّفس في الظاهـر، والباطن، في الزَّمان، والمكان، في اللسان، والسُّلوك، والفكر، والذِّكر، والقلب.. إلخ.

ويرى أنَّ (الأدب مع الله)، هو من أهمِّ مسـائل العرفان، والسُّـلوك العمليّ، ومن شؤون المراقبة، ويُعدُّ مدخلًا إلى الإكثار من الذِّكر (أي كثرة تذكُّر الله واستحضاره).

٧. تأثُّر السَّـيِّد بالعُرفاء في بيان أسرار العبادات: لقد سـعى السَّيِّد ابن طاووس إلى بيان أسرار العبادات ونشرها، وكان له أثرٌ واضح في مَن جاء بعده.

وهو يـرى أنَّ موطن أسرار العبادات، هو الدِّين نفسـه، لكن إظهار تلك الأسرار مشروطٌ بأمرَين:

- أن يكون المُتكلِّم أو المبيِّن مأذونًا من الله تعالى.
- وأن يكون المسـتمع أهلًا للاسـتقامة، والتَّوفيق، وأن يُبـيَّن له ذلك في الوقت المناسب، وبما يوافق المصلحة.

ويَعـدُّ السَّـيِّد الملاءمة الزمانيَّة (أي اختيار الوقت المناسـب) مـن أسرار العبادات أيضًا؛ إذ يرى أنَّ لكلِّ عبادة زمانًا، ومقامًا مخصوصًا تُؤدَّى فيه على أكمل وجه.

٨. يُعَدُّ السَّـيِّد أحد كبـار علماء الشـيعة وكُمَّلهم، وقد كان يؤمـن بالعرفان، وأنَّ شـخصيَّته وسـلوكه الأخلاقـيّ، والعرفـانيّ نالا القبـول، والاعتراف مـن جميع علماء الشِّيعة.

إنَّ الإيـمان بالعرفان في سـيرته العلميَّـة، والعمليَّة، وفي آثاره التـي خلَّفها، يتجلَّى بصور وأساليب متعدِّدة ومتنوِّعة، ممَّا يدلُّ بوضوح على أنَّ العرفان كان عنده ذا أصالة، وأهميَّة، وتأثير كبير.

ونظرتـه الإيجابيَّـة إلى العرفان تُعدُّ من جهة دليلًا على تأثُّـره بالفكر العرفانيّ، ومن جهةٍ أخرى تأييدًا من أحد الأكابر لمكانة العرفان، وقيمته.

٩. تأثُّرات السَّيِّد: كان السَّيِّد، إلى جانب إيمانه بأهل البيت عليهم السلام، واعتقاده بوجوب اتِّباعهم، يصدِّق تصديقًا كبيرًا بكلامهم، وقد تأثَّر بهم تأثُّرًا عميقًا.

وفي شـبابه، كان أكثـر تأثُّـره بأبيه، وجدِّه من بين أسـاتذته ورَّام، ثمَّ فيـما بعد تأثَّر بمحمَّد القاضي الآويّ، الذي كان صديقه، وأستاذه.

١٠. لعلَّ السَّـيِّد كان على ارتباط ببعض العرفاء، والزهَّاد المعاصرين لهُ، وربَّما من المجهولين، ويُحتمل أنَّه التقى بهم، أو تبادل معهم المراسلات.

ومثلـما ذُكر، فقد جرتْ مكاتبات بين صـدر الدين محمَّد القونويّ، وخواجة نصير الدين الطوسيّ، وكان القونويّ محظيًّا باحترام الخواجة.

وبما أنَّ السَّـيِّد كان على صلةٍ بالخواجة الطوسيّ؛ فمن المحتمل أنَّه اطَّلع على أفكار صدر الدِّين القونويّ، غير أنَّ هذا يبقى احتمالًا لا أكثر.

لكـن من المؤكَّد أنَّه كان يولي اهتمامًا خاصًّا بالبيئة العرفانيَّة، وأنَّ اسـتخدامه، وإن كان عامًّا، وبدون ذِكر أسـماء، لمصطلحاتٍ، وأدبيَّاتٍ، وأسـاليبَ خاصَّة بالعرفاء، يُعدُّ دليلًا على معرفته وتأثُّره بآرائهم.

١١. المنهج الذي أسَّس له السَّيِّد في السلوك العمليّ يتميَّز بخصائص عدَّة، وأهمّها ما يأتي:

أ) مركزيَّة الدِّين، ومحوريَّة والفقه، وهذه السِّمة تُعدُّ أصلًا في مدرسته، ومنهجه العمليّ في السُّلوك.

ب) الدُّعاء والمناجاة، فأغلب مؤلَّفاته تشهد على هذه الخصيصة بوضوح.

ج) القَبول، والاعتراف العام؛ فشخصيَّته الروحيَّة، ومنهجه السلوكيّ في الأخلاق والعرفان، قد حظيت بالإجماع بقبول جميع علماء الإماميَّة، العارف منهم، وغير العارف، وقد نُقل ذلك بتواترٍ، وبلا نظير.

د) الاتِّباع والاستمرار، استمرار سيرة ومدرسة السَّيِّد ومقبوليته بين علماء الدين والحوزة، بل ما زالت في بُعدها العمليّ موجوده في الحوزة الشيعيَّة بواسطة العرفاء، وأرباب السلوك، مثل المرحوم ملَّا حُسين قُلي الهمدانيّ.

١٢. السَّيِّد أبدى في مؤلَّفاته آراءً حول المتصوِّفة، وقد أُشير إليها في بعض مصادر التصوُّف أيضًا، مثل حديثه عن نسب الصوفيَّة، وتوثيقه لـ(محمَّد بن سنان)، وذكره لـ(الحسن البصريّ)، وحديثه عن (أبي يزيد البسطاميّ)، و(معروف الكرخيّ).

لكن بالتَّحقيق في مؤلَّفات السَّيِّد، لم يُعثر على رأيٍ صريحٍ معارضٍ لاتِّجاه الصوفيِّين المتشرِّعين، لا من كلامه هو، ولا من نقلٍ موثوق عنه.

أمَّا ما يُذكر في بعض المصادر عن مخالفته لهم؛ فهي لا تتعدَّى أقوالًا من دون سند، ونُسبت إليه معارضته لـ(الحسين بن منصور الحلَّاج)، غير أنَّ أيَّ نصٍّ صريحٍ منه لذلك لم يُنقل أيضًا.

١٣. بصرف النَّظَر عن مسألة الاتِّباع، والاستمرار؛ فإنَّ قبول شخصه، ومدرسته لدى كبار الصوفيَّة أمرٌ ثابت ومسلَّم به، غير أنَّه حتَّى اليوم لم يُقدَّم دليل موثَّق أو حُجَّة قاطعة تُثبت ارتباطه المباشر بإحدى الطرائق، أو السلاسل العرفانيَّة المعروفة.

إنَّ البحث عن الأدلَّة، والشواهد، لإثبات علاقته بالطرائق الصوفيَّة، وإن كان من وجهة نظر بعض الباحثين ضروريًّا، ومحمودًا في ميدان البحث العلميّ، إلَّا أنَّ الإنصاف يقتضي القول إنَّ الدَّافع وراء ذلك ربَّما هو حاجة بعضهم إلى تأييدٍ أو قرابةٍ طريقيَّة وسلوكيَّة بين السَّيِّد وتلك الطرائق، والحال أنَّ العمل بسيرة السَّيِّد وسلوكه هو الدَّليل الأوضح، والأصدق على القرب الطريقيّ منه.

١٤. الآراء التي كانت تنتهي إلى غير المعصوم، لم تكن تجذبُه، فقد كان يميل إلى الوصول المباشر إلى مصدر المعرفة من غير وسائط.

ولعلَّ لهذا السبب لم يُذكر اسمه في أيٍّ من السلاسل العرفانيَّة.

فمعظم طالبي المعرفة، بحسب قابليَّتهم، يحتاجون إلى أولياء مأذونين وسائط، لكن قلَّة نادرة من الأشخاص إذا وصلوا إلى وليِّ الله الأعظم، يُغنون عن الوسائط في السير، والسُّلوك.

ومن هنا، فإنَّهم لا يحتاجون إلى الطرائق، والفرق، والمدارس العرفانيَّة الوسيطة، ولا يرى أحدٌ أهليَّة مقام الأستاذيَّة فيها؛ كما كان الحال بالنسبة إلى أبي يزيد البسطاميّ، ومعروف الكرخيّ، ويُفترَض أن نبحث عن السَّيِّد في هذه الطبقة أيضًا.

١٥. في نظرنا، إنَّ السَّيِّد أسَّس مدرسةً، ومنهجًا، يقوم من جهة على الدِّين المحوريّ، والفقهيَّة المركزيَّة، والسُّلوك القائم على السؤال، والتضرُّع، ومن جهة أخرى يقبل المسائل ذات الصِّلة بالتلقِّي المتعالي.

ونعتقد أنَّ العامل الذي جعل شـخصيَّته الروحيَّـة، والعرفانيَّة موضع قبول لدى عامَّة العلماء الإسـلام، هو شـدَّة فقهه، وتمسُّـكه بالشريعة، لا فقط مقاماته، أو كراماته التي كانت مشهودةً، ومُدرَكة.

فهـو عـارفٌ شـيعيٌّ متـشرِّع؛ بـل مـن كبـار المتشرِّعـين حتَّى بـين غـير العرفاء أنفسهم.

وَآخِرُ دَعْوَانا أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. آقا بزرك الطهرانيّ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، إسماعيليان، قم، والمكتبة الإسلاميَّة، طهران، ١٣٠٨هـ.

٢. الآمليّ، السيِّد حيدر، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، محسن الموسويّ التبريزيّ، مؤسَّسة فرهنكَى ونشر نور على نور، قم، ط ١، ١٣٨١.

٣. المقدِّمات من كتاب نصِّ النصوص، انتشارات توس، ط٢، ١٣٧هـ.ش.

٤. إسلام جو، حامد، معبرى به آسمان، نشر سايه، قم، ط١، ١٣٨٨هـ.ش.

٥. ابن أبي الحديد المعتزليّ، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيَّة، ط١، ١٩٥٩.

٦. ابن عربيّ، محيي الدين، الفتوحات المكِّيَّة، دار صادر، بيروت.

٧. الأردبيليّ، السيِّد عبد الغنى، تقريرات فلسفه، مؤسَّسة تنظيم ونشر آثار امام خمينى، ط ١، طهران، ربيع ١٣٨١هـ.ش.

٨. الإمام الخمينيّ، آداب الصلاة، تقرير آية الله السيِّد محمَّد حسن المرتضويّ لنكرودي، مؤسَّسة تنظيم ونشر آثار امام خمينى، ط١، طهران، ١٣٧٠هـ.ش.

٩. سر الصلاة معراج السالكين وصلاة العارفين، مؤسَّسة تنظيم ونشر آثار امام خمينى، ط٦، طهران، صيف ١٣٧٨هـ.ش.

١٠. شرح حديث «جنود عقل وجهل»، مؤسَّسة تنظيم ونشر آثارامام خمينى، ط١، طهران، ربيع ١٣٧٧هـ.ش.

١١. شرح جهل حديث (أربعين حديث)، مؤسَّسة تنظيم ونشر اثار امام خمينى، ط ٢٣، طهران، صيف ١٣٨٦.

١٢. صحيفه امام (مجموعه آثار الإمام الخمينيّ)، مؤسَّسة تنظيم ونشر آثار امام خمينى، ط ١، طهران، خريف ١٣٧٨.

١٣. ديوان امام حضرت امام خمينى، مؤسَّسة تنظيم ونشر آثارامام خمينى، ط٢٧، طهران، ربيع ١٣٧٩.

١٤. الأمين، السيِّد محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٢٠٦هـ.ق.

١٥. البحرانيّ، ميثم بن عليّ بن ميثم، ترجمه شرح نهج البلاغة، مترجِم: قربان على محمَّدي مقدَّم، على أصغر نوايى يحيى زاده، بنياد پروهش هاى اسلامى آستان قدس رضوى، مشهد، ط١، ١٣٧٥.

١٦. البحرانيّ، يوسف بن أحمد بن إبراهيم، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، محقِّق ومصحح: شيخ محمَّد تقي الأيروانيّ، سيِّد عبدالرزاق مقرَّم، دفتر انتشارات اسلامى وابسته به جامعة مدرسين حوزه علميه قم، قم، ط١، ١٢٠٥هـ.ق.

١٧. بحر العلوم، السيِّد مهدي، تحفة الملوى في السير والسلوى، مقدَّمة وشرح:

السيِّد محمَّد حسين الحسينيّ الطهرانيّ، انتشارات حكمت، من دون ذكر مكان الطبع، ط١، اسفند ١٣٢٠.

١٨. الجامي، ديوان أشعار.

١٩. جمال الدين أحمد بن عليّ الداووديّ، ابن عنبة، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، تصحيح: محمَّد حسن آل الطالقانيّ، منشورات المطبعة الحيدريَّة، النجف الأشرف، ط٢، ١٩٦١م.

٢٠. الحائريّ المازندرانيّ، شيخ محمَّد بن إسماعيل، منتهى المقال في أحوال الرجال، مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم، حاب اوّل، ١٢١٦ه. ق.

٢١. حافظ الشيرازيّ، شمس الدين محمَّد، ديوان حافظ، به اهتمام القزوينيّ والدكتور قاسم غني، نشر لقمان، (من ذكر المكان والتاريخ).

٢٢. حسن زاده الآملي، حسن، در آسمان معرفت (تذكره اوحدى از عالمان ربَّانى)، انتشارات تشيع، ط٤، صيف ١٣٧٦.

٢٣. رسالة نور على نور (مع مفتاح الفلاح)، الشيخ البهائيّ، ترجمه: على بن طيفور بسطامى)، علَّامه حسن زاده آملى، انتشارات حكمت، بجا، جاب اوَّل، شعبان ١٣٠٧هـ.ق.

٢٤. حِلِّي، منهاج الكرامة، تحقيق: عبدالرحيم مبارك، انتشارات تاسوعا، مشهد، ط١، ١٣٧٩.

٢٥. نهج الحقِّ وكشف الصدق، مقدِّمة السيِّد رضا صدر، وتعليق: عين الله حسنى الأرموى، دار الهجرة، قم، ١٣٢١هـ.ق.

٢٦. الخوانساريّ الأصفهانيّ، ميرزا محمَّد باقر الموسويّ، روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسادات، مكتبة إسماعيليان، قم، ١٣٩٠هـ.ق.

٢٧. ذكاوتي قراكَزلو، علي رضا، الشيبيّ، كامل مصطفى، تشيُّع وتصوُّف (تا آغاز سده دوازدهم هجرى)، الشيبيّ، كامل مصطفى، أمير كبير، تهران، ط٣، ١٣٨٠.

٢٨. موسوعة طبقات الفقهاء، مؤسَّسة الامام الصادق عليه السلام، قم، ١٢١٨هـ.ق.

٢٩. سيِّد ابن طاووس، عليّ، الإقبال بالأعمال الحسنة، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ط٣، ١٣٦٧.

٣٠. الأمان من أخطار الأسفار والأزمان، آل البيت عليهم السلام، قم، ط١، ١٣٠٩هـ.ق.

٣١. التحصين، مؤسَّسة دار الكتاب، قم، ط١، ١٣١٣هـ.ق.

٣٢. جمال الأسبوع، انتشارات رضى، قم، ١٣٣٠.

٣٣. سعد السعود للنفوس المنضود، انتشارات دار الذخائر، قم.

٣٤. الطرائف، كتابخانه خيام، قم، ١٣٠٠هـ.ق.

٣٥. فتح الأبواب، مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم، ط١، ١٢٠٩هـ.ق.

٣٦. فرج المهموم، دار الذخائر، قم، ١٣٦٨هـ.

٣٧. فلاح السائل ونجاح المسائل، بوستان كتاب، قم، ط١.

٣٨. كشف المحجَّة لثمرة المهجة، بوستان كتاب، قم، ط٢، ١٣٧٥.

٣٩. اللهوف على قتلى الطفوف، جهان، طهران، ط١، ١٣٣٨.

٤٠. محاسبة النفس، انتشارات مرتضوى، ط ٣، من دون ذكر تاريخ ومكان الطبع.

٤١. الملاحم والفتن في ظهور الغائب المنتظر، شريف رضى، قم، ط١، ١٣٧٠.

٤٢. مهج الدعوات ومنهج العبادات، دار الذخائر، قم، ط١، ١٢١١هـ.ق.

٤٣. الشافعيّ، محمَّد بن طلحة الشافعيّ، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، تحقيق: ماجد بن أحمد العطيَّة، من دون تاريخ ومكان الطبع.

٤٤. الشهيد الثاني، حقائق الإيمان، تحقيق: السيِّد مهدي الرجائيّ، مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النجفيّ، قم، ط١، ١٣٠٩هـ.ق.

٤٥. الشيرازيّ، محمَّد معصوم (معصوم عليشاه)، طرائق الحقائق، مع تصحيح محمَّد جعفر محجوب، انتشارات كتابخانه سنايى، من دون تاريخ ومكان الطبع.

٤٦. ٤٥. الصدوق، أبو جعفر، محمَّد بن عليّ بن حسين بن موسى بن بابويه القمِّيّ، الأمالي الصدوق، الأعلميّ، بيروت، ط٥، ١٣٠٠هـ.ق.

٤٧. ٤٦. العامليّ، الشهيد الأوَّل، محمَّد بن مكِّيّ، الدروس الشرعيَّة في فقه الإماميَّة، دفتر انتشارات اسلامى وابسته به جامعه مدرسين حوزه علميه قم، ط٣، ١٢١٧هـ.ق.

٤٨. ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة، قم، من دون ذكر مكان الطبع، ١٢١٩هـ.ق.

٤٩. العامليّ، الشيخ الحر، أمل الآمل، مكتبة الأندلس، بغداد، نجف أشرف، ١٣٨٥هـ.ق.

٥٠. وسائل الشيعة، مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم، ١٢٠٩هـ.ق.

٥١. العطَّار النيشابوريّ، تذكرة الأولياء، فريد الدين محمَّد، مقدِّمه: از ناصر هيّرى، انتشارات كلشايى وانتشارات حكامه، ط٣، بهمن ١٣٦١.

٥٢. العراقيّ النجفيّ، الشيخ عبد النبيّ، المعالم الزلفى في شرح العروة الوثقى، المطبعة العلميَّة، قم، ط١، ١٣٨٠هـ.ق.

٥٣. الغزَّاليّ، أبو حامد، مجموعة رسائل الإمام الغزَّاليّ، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٢١٦هـ.ق.

٥٤. الطباطبائيّ، السيِّد محمَّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، دفتر انتشارات اسلامى، جامعة مدرِّسين حوزه علميَّه، قم، ط٥، ١٣١٧هـ.ق.

٥٥. الطهرانيّ، أبو الفضل بن أبي القاسم، شفاء الصدور في شرح زيارة العاشور، با پاورقى وتوضيح وتصحيح آقاى سيد إبراهيم شبيرى، انتشارات مرتضوى، ط١، ١٣٧٢.

٥٦. الطوسيّ، أبو جعفر محمَّد بن حسن، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ط٤، ١٣٠٧هـ.ق.

٥٧. الفراهيديّ، خليل بن أحمد، كتاب العين، منشورات الهجرة، قم، ط٣، ١٣١٠هـ.ق.

٥٨. الفيض الكاشانيّ، ملَّا محسن، تسهيل السبيل بالحجَّة في انتخاب كشف المحجَّة لثمرة المهجة، تحقيق: مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مؤسَّسة البحوث والتحقيقات الثقافيَّة، ط١، ١٣٦٦.

٥٩. القمِّيّ، الشيخ عبَّاس، الفوائد الرضويَّة في أحوال علماء المذهب الجعفريَّة، تحقيق: ناصر باقرى بيدهندى، مؤسَّسة بوستان كتاب، ط١، قم، ١٣٨٥.

٦٠. الكاظميّ التستريّ، الشيخ أسد الله، مقابس الأنوار ونفائس الأسرار في أحكام النبيِّ المختار وعترته الأطهار، من دون ذكر التاريخ والمكان.

٦١. الكفعميّ، إبراهيم، مصباح الكفعميّ (جنَّة الأمان)، انتشارات الرضيّ (زاهدى)، قم، ط٢، ١٣٠٥هـ.ق.

٦٢. كلبرك، إتان، كتابخانه ابن طاووس واحوال وآثاراو، مترجمان: سيِّد على قرائى، رسول جعفريان، كتابخانه عمومى آية الله العظمى المرعشيّ النجفيّ، قم، بهمن ١٣٧١.

٦٣. الكلينيّ، محمَّد، الكافي، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ١٣٦٥.

٦٤. أدب حضور، انتشارات انصارى، قم، ط١، ١٣٨٠.

٦٥. المجلسيّ، محمَّد باقر، بحار الأنوار، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، لبنان، ١٣٠٣هـ.ق.

٦٦. مرآة العقول، به تحقيق: سيِّد ها شم رسولى، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران، ط٢، ١٣٠٣هـ.ق.

٦٧. المجلسيّ، محمَّد تقي بن مقصود عليّ أصفهانيّ، تشويق السالكين، انتشارات نور فاطمه، من دون ذكر مكان الطبع، ط٣، ١٣٧٥.

٦٨. محدث بندرريكى، إبراهيم، ترجمه المراقبات، انتشارات اخلاق، من دون ذكر مكان الطبع، ١٣٧٦.

٦٩. المحدِّث النوريّ، مستدرك الوسائل، مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم، ١٢٠٨هـ.ق.

٧٠. محمَّـدي كَيلاني، محمَّد، شرح مناجات شـعبانيَّه، با مقدمـه وپاورقى از زين العابدين قرباني، انتشارات سايه، طهران، ط ٣، خريف ١٣٧٣.

٧١. المطهَّريّ، مرتضى، مجموعه آثار أسـتاد شـهيد مطهَّري، صدرا، طهران، ط٣، ١٣٧٧.

٧٢. الملكيّ التبريزي، ميرزا جواد آقا، أسرار الصلاة، رضا رجب زاده، انتشارات بيام آزادى، من دون ذكر مكان الطبع، ط٨، ١٣٧٨.

٧٣. المراقبات، تحقيق: سيِّد عبد الكريم محمَّد الموسويّ، إيران، ط٣، دار الاعتصام للطباعة والنشر، ذي الحجَّة، ١٤٣١هـ.ق.

٧٤. النجفـيّ، محمَّد حسـن بن باقر، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسـلام، دار إحياء.

٧٥. النـوريّ، مـيرزا حسـين، خاتمة المسـتدرك، تحقيـق: كَروه بروهش مؤسَّسـة آل البيت عليهم السلام، قم، ط١، من دون ذكر التاريخ.

٧٦. ورَّام بـن أبي فراس، مجموعة ورَّام (تنبيه الخواطر)، مكتبة فقيه، قم، ط١، من دون ذكر التاريخ.